ادموند صبري رزوق

المأمور العجوز وقصص أخرى

مع مقدمة

للدكتور صلاح الدين الناهي

مطبعة دار المعرفة - بغداد

١٩٥٣

ادموند صبري رزوق

المأمور العجوز وقصص أخرى

مع مقدمة

للدكتور صلاح الدين الناهي

مطبعة دار المعرفة - بغداد

١٩٥٣

المقدمة

بقلم الدكتور صلاح الدين الناهي

تربطني بكاتب هذه المجموعة صلة قديمة تمتد الى عهد قديم كان فيه طالباً في كلية التجارة والاقتصاد يوم كنت وكيلا لعمادتها وكان شعوري يومئذ ان طلابي في كلية التجارة أدنى إلى الشعب بكل شيء : ببؤسه وكفاحه وآماله المحدودة الافق .

ولقد تذكرت هذا الشعور الذي كان يخامرني يوم طلب الي السيد ادمون أن أقدم لمجموعته هذه بمقدمة فاذا بي اتلمس في كل سطر من سطورها صدق ذلك الشعور فالكاتب من صميم الشعب اقاصيصه تسرد انماطا مختلفة من الحياة الشعبية بما تحفل به من الهموم والشجار ومن خشونة وشظف وهرج ومرج وسذاجة في المشاعر ، فانت اذا قرأت له قصة شجار عجبت لتلك الصداقة الساذجة التي تنعقد بسرعة خاطفة بين زوجة سعيد وزوجة الاسكافي . ثم لا تلبث ان تنتهي بذلك الشجار العنيف بين المرأتين فاذا كل منهما تتلو على الأخرى محيطاً من الالفاظ البذيئة الفاحشة .

ولا تلبث ان تتساءل حين تنتهي من قراءة هذه القصة هل مارس كاتبها التعليم فاجيبك على ذلك بما اجابني : نعم لقد كان معلماً ولولا

ليسانس التجارة والاقتصاد لما استطاع ان يجد له مفراً من حياة التعليم ومستقراً في المصرف الصناعي .

كاتب هذه المجموعة اذن ليس من كتاب البروج العاجية بل هو من كتاب هذه المدرسة الواقعية التي ما برحت منذ عهد قريب تشق طريقها في الأدب العربي وهو بعد ذلك قد خبر هذه الحياة التي يصفها لك ويرويها ويحكي ما يقع فيها من الصغائر والمهازل والنقائض .

واذا حدثك فانما يحدثك بلغة الحياة نفسها . فهو لا يصطنع شيئاً من الأساليب البلاغية والزخارف اللفظية في حديثه ولا يتكلف تشبيهاً رومانطيقياً ولا يشيع في نفس القاريء جواً خيالياً ولا يوقد ناراً ولا بخوراً

وقد لا تتفق معه على هذا الاسلوب الجاف والسرد الواقعي وعلى غلوه في وصف كل حركة ولو كانت نابية تشمئز منها النفس وتعافها ولكنك لا تنكر عليه انه يقسرك على متابعته وقرائته ويشعرك بقدرته على تصوير حياة الناس ويضطرك الى الهبوط اعمق اعماق أخاديد الحياة الشعبية ان صح ان في تلك الأعماق حياة او انها اكثر من مجرد حركة دائبة لا لون لها ولا طعم ولا كبير رجاء .

ولا اطيل عليك الحديث فان من الخير لك ان تنصرف الى قراءة ما اقدمه اليك بنفسك وقد لا تتفق معي او معه في الرأي والتقـــدير ولكنك لن تنكر عليه واقعيته ودقته في الملاحظة والسرد والحبك والرغبة الصادقة في التصوير وان عبث عليه اهماله قواعد النحو .

شـــجار

كم كان المعلم سعيد يشعر بالتعب والسأم . منذ الصباح الباكر أطل عليه رأس صاحب المنزل ،وقف على عتبة الباب مزمجراً غاضباً . (ماهذا التسويف ياسعيد هل انتظر سنة كاملة ادفع ايجارك في الحال والا القيت أثاثك في الوحل) واسمعه كلاماً خشناً آخر ، مما جعل سعيداً يخجل ويندى جبينه بالعرق . فوقف بعض المتسكعين بأيديهم (علاقات) مليئة بالخضار واللحم والخبز ينصتون ويقلبون شفاههم وجاره السيد بدر وقف كذلك دون ان يتدخل لمعونته . فكم اغاظه هذا السلوك . حدثت معركة عنيفة بين اطفاله واطفال بدر ثم امتد لهيبها الى زوجته وزوجة جاره فتراشقت المرأتان بالتهم الشنيعة وانتهى الامر الى خصومة وجفوة بين الرجلين . حتى امارات التشفي كانت مرتسمة على وجه جاره كأنه يقول لسعيد (هيا اخرج من المحلة لانريد ان نرى وجهك بعد اليوم) .

اضطر ان يبحث عن دار اخرى . طال مطافه في عدة زقة محترمة نظيفة فلم يوفق فيها الى دار كلها مرتفعة الايجار غالية الكلفة فانحدر الى ازقة اقل مرتبة وتساهل في امر الاوحال والقذارة وضجيج الاطفال فاستأجر داراً صغيرة قديمة زرية المنظر ، وانتقل اليها باولاده وزوجته واثاثه القليل التافه .

في صباح اليوم التالى خرج من داره الجديدة ووجد اكوام الوحل ملقاة عند الباب والروائح النتنة تزكم الانوف ومياهاً قذرة سوداء تنحدر في شقوق الارض وحفرها ونساء حافيات باقدام كبيرة موحلة يلقين فضلات الطعام في زوايا الطريق . فاشمأز وسكت ومضى في سبيله .وعند الظهر عاد من مدرسته فاستقبلته زوجته بوجه باسم فرح قالت تبشره.

الا تدري ؟ زارتنا جارتنا في الصباح كم هي امرأة طيبة ساكنة . زوجها اسكافي ولها تسعة اطفال شكت لي حالها المؤلم فاشفقت عليها .

اشاح سعيد بوجهه عنها وقال لها باختصار : احذري من المشاجرات لاتدعي ابنائنا يلعبون معهم . قالت محتجة لا ياسعيد لقد تآلفوا منذ اللحظة الاولى يلعبون ويمرحون سوية

هز سعيد رأسه متوعداً

سنرى ياعزيزتي سنرى اصبري لى بعد بضعة ايام .

وحدث ماتوقعه سعيد عاد من مدرسته مساء احد الايام فوجد زوجته

عند الباب في حالة يرثى لها من الهياج ، وجهها مخدش وشعر رأسها منفوش وصوتها مختنق . صاح بها ماذا حدث يافهيمة ؟ وفي داخل المنزل كان ابنه حسن يبكي بكاءاً مراً ووجهه ملطخ بالطين مع دمعه الغزير المنهمر .

جن جنون سعيد واهتاجت اعصابه . وزعق في وجه زوجته ماذا حدث حدثيني ؟ ولولت زوجته .

ـ هذا (السرسري) ابن عبدالله الاسكافي جارنا . ويل له من ابن قذر تخاصم مع ابننا حسن وسحق ساقه بالعصا . انظر ماذا فعل به !

ولم يكتف بهذا . وثب على وشد شعري وخدش وجهي باظافره . سأبلغ الخبر للشرطة . يجب ان اسجنه يجب ان اسجنه هذه وقاحة هذا تعدي . اشتدت ولولتها وتجمع اناس غرباء ذوو هيئات قذرة ضايقوا سعيداً بمنظرهم وتدخلهم . وهمت زوجته ان تأخذ عباءتها وتسرع الى الشرطة فامسك بها المعلم سعيد وهدأها بلطف وأخذ عباءتها وقادها الى داخل المنزل واغلق الباب .

الم اقل منذ البدء ـ قال سعيد معاتباً ـ ان الاختلاط مع اناس شرسين فيه مضايقة واذى لنا انظري ماحدث ؟ هذه تربية اولادهم . بيوت ضيقة كاوجار الفأر مكتظة بعدد وفير من الاطفال المشردين . اين يذهبون؟ لاحديقة اطفال ولا ملاعب ولا منتزهات . . . وفوق هذا اسراف في النسل . لاهم لهم الا انجاب مخاليق وقحة مجرمة عابثة . مصيرهم السجن

والاعدام والتفسخ . عليك يافهيمة يازوجتي ياشريكة حياتي منع اطفالنا من الاختلاط باحد لا استطيع ان اتشاجر مع الناس . . يلعبون في البيت فقط

ـ كيف يمكن هذا ؟ ـ صاحت زوجته ـ الدار صغيرة ضيقة لا تتسع لهم ،لنا خمسة اطفال يتصايحون ويتشاجرون ويعووون . انا مشغولة بطهي الطعام وغسل الملابس

ـ ليس لنا حل غير هذا والا هجموا على ذات يوم وبصقوا في وجهي وطرحوني في الطين . غضبت زوجته وصاحت في صوت مرعب

ـ يبصقون في وجهك ؟ انت مسكين لهم ،من هم ؟ ابصق انت في وجههم مرغهم في الطين احتقرهم ... لا تكن هكذا ليناً ضعيفاً ... انا اعرف كيف اعاملهم واروضهم . . دع الامر لى

وبعد بضعة ايام وقد مرت تلك الحادثة بسلام دون ان تلحق بشخص سعيد اهانة .دخل الدار مساءاً فوجد زوجة جاره نورية تتحدث مع زوجته في (المجاز) حديثاً ودياً . امامهما اكواب الشاي ترتشفانها وعلبة السكائر مطروحة بينهما ، هذه العلبة التي اشتراها سعيد قبل يومين للمناسبات الطيبة . وصحن شاي مبلى باعقاب السكاير والرماد . حنق على زوجته حتى انه لم يسلم ولم يحي احداً . فاتت اليه زوجته بعد انصراف جارتها .

ـ لو تعلم سعيد اى امرأة طيبة هي ، بائسة فقيرة زوجها الاسكافي

يسومها العذاب الوانا حدثتني عن حالها . لها تسعة اطفال كلهم بلا مدارس اغتاظ سعيد وسألها بحدة

هل نسيت تلك المشاجرة المخجلة من شد شعرك وخدش وجهك ؟

ـ اواه ياسعيد لو تدري ؟ اعتذرت لى وقبلتني وضربت ابنها ضرباً مبرحاً بالقبقاب حتى كادت فقرات ظهره تنخلع ٠

وفي صباح اليوم التالى مر بالاسكافي ٠ وجد دكانه صغيراً قائماً في زاوية حادة من زوايا الطريق لم يفطن الى وجوده قبل هذه المرة ٠ تأمله سعيد فوجده عجوزاً مقوس الظهر تتدلى من وجه لحية غبراء ٠ محنياً على جلدة سميكة يقطعها بسكينه الحادة وحوله احذية قديمة اخرى واكوام من الجلود المختلفة وسطل ماء قذر وفوق رأسه خيوط العناكب ٠ وطفلة صغيرة تساومه على اصلاح قبقاب امها . ولما وقعت انظار الاسكافي على جاره هتف مرحباً .

ـ اهلا ياسيد سعيد اننا جيران تشرفنا بكم وازاح قطعة الجلد عن سكينته وابتسم ابتسامة مقيتة بعينيه الصغيرتين حتى خيل اليه ان وجه الاسكافي كوجه ابليس خرج له من كهف مرعب، استطرد هذا . حدثتني زوجتي عنك فاشتقت للتعرف عليك . . تفضل تفضل سادعو لك بقدح الشاي . اعتذر سعيد وصاح متضايقاً كلا لا اريد انا ذاهب .. لدى عمل شكراً في مناسبة اخرى . اذن تفضل في المساء في مقهى رشيد نحن هناك

نتسامر في الليل .

ـ شكراً شكراً .

وتخلص سعيد من لجاجته .

* * *

مضى اسبوعان في هدنة مريحة . الا ان سعيداً لاحظ ان زوجته لاتخرج لزيارة جارتها كما ان الجارة انقطعت عن زياراتها . وكلما مر هو بالاسكافي في الصباح يحييه كعادته ، الا ان تحيته كانت ترد ببرود دون ان يعقبها ترحيب ، فلم يعر لهذا اهتماماً .

وذات ليلة حدث امر فظيع ، عاد سعيد من مقهاه في الشارع العام فتناهى الى سمعه وهو بعد لم يصل الى حارته ، اصوات منكرة وشتائم وسباب وهرج لا مثيل له ، ففزع وارتقب وانصت ملياً كالفأر الذى سمع قرعة طبل مفاجئة اسرع الخطى وهو في حالة اضطرب وهلع . ماذا وجد؟ يا للمشهد الفظيع . وجد زوجته بباب المنزل تشتم وتسب وتطلق من فمها عبارات الفحش كالهدير الصاخب . وزوجة جاره فى باب منزلها ممعنة فى سرد افظع مثالب المرأة تصرخ فى هياج والزبد يتدفق من شفتيها . (انت يا فاحشة اعرف انا من هو والد اطفالك يامنحطة سافلة داعرة) . وزوجته تنفجر بصرخات مدوية . (انت الحثي عن عشاقك عن والد اطفالك هذا زوجك العجوز العاجز هذا نصف انسان هذا الميت) وقد

اجتمع حولهما خلق كثير قدموا من اطراف المحلة البعيدة يصفرون ويعلقون ويمسكون بالمتشاجرتين لئلا تهجم احداهما على الأخرى وتفترسها. رأى بعض الرجال الغرباء قد امسكوا بزوجته يدفعونها ويدخلونها المنزل وهي تدفعهم وتصدهم وتصيح :

اتركوني انتقم منها هذه الفاحشة الزانية هذه السفاحة الآثمة ، وتلك الاخرى تصيح من الجانب الآخر . (يا عاشقة الصبيان يا لعينة فاجرة) واشتبك اطفاله مع اطفال الجارة فى معركة محتدمة مريرة تطايرت فى الفضاء قطع الحجر والصخر وسالت الدماء و شتد لغط الناس ذهل سعيد لهذا المنظر وجمد فى مكانه كالمصعوق لا يدري بأية خطوة يبدأ .

الصرخات والصيحات والاستغاثات تأتي الى اذنيه من كل جانب فاحتقن الدم فى وجهه وتلجلج لسانه . وجد طفله الصغير فوزى الذى يحبه كثيراً مطروحاً على ظهره فوق كومة من الطين القذر يصيح ويستغيث وابن جاره قد قعد فوقه كالغول يلطمه ويدوسه .

انتابته نوبة من تلك النوبات الحادة التي تعتريه فى الصف عندما يقرأ للصبيان درسهم فيثيره احدهم كأن يلقي عليه حصاة صغيرة او يخرج له لسانه او يموء كالقطة من تحت الرحلة او يقرأ درسه بنبرة تثير ضحك زملائه فيشعر سعيد بحراجة تلك الساعة ان الزمام يوشك ان يفلت من يده . فينقلب كل شيء فى عينيه اسود قاتماً . نسى نفسه ولم يعد ذلك الرجل

الصامت المهذب . صرخ صرخة مدوية وانقض كالنسر الجارح انشب اظافر يديه في ظهر ابن الجارة ومزق ثوبه ورفعه بين يديه عالياً كلعبة صغيرة وقذف به بكل قوته على الارض . صكت ولولة النساء سمعه ولم يعد يرى شيئاً تراءى له وجه الاسكافي وقد احتقن بالدم عيناه الصغيرتان تشعان ناراً موقدة . خلع حذائه الثقيل ، احس سعيد بضربة قوية تهوى على رأسه ثم ضربات اخرى . وسمع صوتاً يصيح به . (هذا معلم هذا مربي اطفال هذا شرير تعس) غاب عن وعيه فتبرع المتفرجون بحمل جسده النحيل الى داخل المنزل . وضعوه فوق (كنبة) كبيرة لا حراك فيه .

مضت عليه عدة ساعات قبل ان يستفيق فذهبت زوجته الى مركز البوليس وسجلت دعواها على الاسكافي وزوجته وابنه . وقامت زوجة الاسكافي بدورها ايضاً فسجلت شكايتها بدعوى متقابلة . افادت ان جارتها وزوجها اعتديا عليها وعلى ابنها فخلعا كتفه وجرحاه . وباتت المحلة تلك الليلة ولا حديث لها الا عن مشاجرة اليوم . نقل السيد سعيد الى المستشفى وحصل على التداوي واخذ ابن الاسكافي الى المستشفى ايضاً للمعالجة وعاد الاثنان معصوبين بالضمادات ، تفوح منهما رائحة اليود الحادة . فخرجت نساء المحلة واولادهن لاستقبال الجريحين كأنهما عائدان من الجبهة .

تمدد سعيد على (الكنبة) يتأوه ويرسل الزفرات ويتحسس موضع الجروح فى رأسه . قعدت زوجته الى جانبه تواسيه وتعاتبه .

ـ سأزج بهم في السجن جميعاً ... لا اقل من خمس سنوات اشغال شاقة حتى الاسكافي هذا المجرم الشرير سأحطم رأسه . . . أليست هناك حكومة . . . ارواح الناس مهدورة رخيصة . هناك قانون صارم يعاقب القتلة الأشقياء .

زمجر سعيد في وجه زوجته :

ـ اصمتي ايتها الحمقاء هذا ذنبك هذا جهلك قلت لك لا تختلطي بالجيران هؤلاء اوباش ادنياء لصوص مجرمين .. انظري هذه النتيجة . . متى سأشفى ؟ كيف سأخرج الى الطريق بهذه الرأس المعصوبة ويرونني الناس ويشمتوا بي

ـ هو ذنبي ام ذنبك ؟ ـ اجابت فهيمه ـ ماذا جرى لك لم افهم ؟. هل جننت ؟ كيف تهجم على ابن الاسكافي هذه الهجمة المجنونة . . . كدت تقتله . كدت تفتك به ياسعيد ... غاص قلبي بين ضلوعي من الفزع . . انا مريضة اكثر منك . . لم تعد لي قوة ، انحلت اعصابي . وراحت تتأوه وتتشكى . لم يجب سعيد تنهد وتأفف وزفر عدة زفرات وتقلب على الكنبة وهو يردد في صوت خافت لا يسمعه احد :

ـ يا للجاهلة كأنها لا تدري انا معلم ابتدائية معلم صبيان شياطين . مصاب باختلال في الأعصاب . لا تدري ما الذي حدث ذات يوم في

المدرسة يا لهول ما حدث . انزلت قبضة يدي الثقيلة على رأس تلميذ وقح .. يا الله تراءت لي المشنقة ذلك اليوم . قلت انتهت حياتك يا معلم سعيد . سقط التلميذ مغشياً عليه كأنه ميت . شحب وجهه وجمدت اطرافه وضعف تنفسه اواه كدت اموت من الفزع . لولا ذلك المدير الشهم الذي انقذ الموقف بكياسته وحكمته ... هدأ اعصابي وقوى عزيمتي واسكن روعي . كنت في امس الحاجة الى شيء من رباطة الجأش الى انسان يشجعني قليلا ، يعيد لي صوابي . عالجوا التلميذ بالمنبهات و بسطول الماء حتى افاق . ولكن بعد ان تحطمت بالمرة .

الى اليوم لا ينسى سعيد تلك الحادثة المروعة . ان المدير استغل ذلك الظرف وفرض عبودية على سعيد صار يكلفه بمهام اضافية ويتعبه بالواجبات وهو لا يستطيع ان يتذمر ويتبرم خشية ان يفضح المدير تلك الحادثة . ويذيعها بين الناس .

* * *

تحسنت صحة سعيد ، فرجا زوجته ان تسقط دعواها في الشرطة بعد ان علم ان دعوى جاره قد اسقطت كذلك . اصدر اوامره المشددة الى اولاده وزوجته بالاعتصام في المنزل مهما كانت الأحوال . استعمل الصرامة والقسوة . يأتي من عمله مساء فلا يخرج مرة اخرى يجلس الى اطفاله يداعبهم ويلاعبهم ويطالع معهم دروسهم وفي الصباح يذهب الى مدرسته . حريص جداً ان يتحاشى دكان الاسكافي ولا يمر به ولا تقع

عيناه على وجهه البغيض . اكتشف لنفسه طريقاً آخر فيه منعطفات طويلة تصل به الى الشارع العام .

انتهت السنة الدراسية وتمتع سعيد بعطلة الصيف الطويلة . الا ان منهاجه الصارم لم يتبدل مثابراً عليه لايسمح لأحد بخرقه وافساده . حتى الوقوف بباب المنزل محظور على افراد عائلته يعود الى بيته مع الغروب فيملأ بوجوده الفراغ الصغير الذي تحسه زوجته واولاده .

كانت امسية حارة خانقة والبيت صغير مكتظ فتتململ زوجته ويتضايق الأطفال الا انه ظل صارماً لا يلين كقبطـــان السفينة يداعبهم ويمـــازحهم ان شعروا برغبة الى المداعبة والمزاح وينهرهم ويقسو عليهم حينما لا يكون سبيل الا النهر والقسوة ويدرسهم ويرشدهم ان وجدهم في حاجة الى الدرس والارشاد . حتى على السطوح وضع سعيد ستارة سميكة تفصل عنه جاره . في بعض الليالي سمع سعيد سعال الأسكافي وتأوهاته فلم يرق له قلبه بل تبسم شامتاً (ليته يموت هذا الشرير . . . كاد يقتلني كاد يسفك دمي) وانزوى الى جوار زوجته في السرير الكبير دون ان تخرج من فمه نأمة او تأوه او حسرة ، يتطلع الى الأسرة الصغيرة التي ينام عليها الأولاد واحياناً يتسلل من الفراش ويمشي على اطراف قدميه لا لشيء سوى ان صدر ابنه غير مغطى او رجل ابنته وداد معرضة لتيار الهواء او الابن الآخر قد زحف قميصه وتعرضت بطنه للبرد يصيح بهم مخافتاً (ما هذا لا تلاحظوا انفسكم ؟

تدثروا تدثروا جيداً قد يبرد الهواء بعد منتصف الليل وتمرضون) ويعود الى سريره مطمئناً .

زوجته فهيمة تغط في النوم تضطجع على ظهرها وتفتح ذراعيها ويعلو على صدرها ثدياها الكبيران كأنهما نفاخات اطفال . يتقلب في الفراش عدة مرات ويخيل اليه في بعض الأحيان ان انساناً ما يعبث بالأثاث في صحن الدار . او حركة غير اعتيادية تأتي الى اذنه من بعض الغرف . واحياناً يسمع باب غرفته يغلق بهدوء وكأن انساناً يمزق اوراقه ويتلف دفاتره او يختلس النظر الى الدرجات السرية التي يضعها للتلاميذ . فيشتد قلقه وتستثار هواجسه فيتسلل من فراشه مرة أخرى ويمشي في احتراس القط الذكي يطل من (المحجر) وينصت باهتمام فلا يجد الا ظلمة مطبقة وسكونا موحشاً . يفكر (لعل هذا الاسكافي يلعب معه لعبة خسيسة . . لا لا ها هو الأسكافي يرسل سعاله الجاف من فوق سريره الخشبي يفكر ملياً قد تكون قطة جائعة تطارد فأراً . ثم ينصت الى احاديث جاره السمجة . لا حديث له الا عن الأحذية . حتى مع زوجته يتحدث عن مزايا الجلود الفرنسية .

* * *

كان ذلك اليوم يوم الراتب من الصباح الباكر عقد مؤتمره الشهري مع زوجته تحدثا عن الرز والسمن والحنطة ثم عرجا على حاجيات الأطفال الجلابيب والأحذية والقمصان الداخلية . وخصص قدراً من ميزانيته

لشراء دواء لابنه فوزي . كان يبدو هزيلا وفي مرفقيه قروح كريهة . ثم اتت الزوجة الى استعراض حالها . يعوزها قميص نوم وبدلة خفيفة للصيف ثم اشياء اخرى للزينة لا تتحدث عنها فهيمة بالتفصيل انما سعيد يفهمها فيدس في يديها دينار . ويقول في نفسه . (هذه ضريبة الجمال . . . تجملي جيداً يا امرأة) احضر دفتراً صغيراً وسجل فيه قراراته التي اتخذها لهذا الشهر . راجعها بدقة ودرس اقيامها وقارن بينها وبين الشهر الماضي . وكون في ذهنه تقريراً صغيراً عن مجرى حياته المعاشية انه يجد في هذه المباحث لذة كبرى تسبغ عليه هيئة المتعلم المتفهم للاقتصاد .

قبض راتبه ذلك النهار واتجه نحو الشورجة . استأجر حمالا قوياً معه (زنبيل) كبير وخاض المعمعة مع البقالين والعطارين اشترى البصل والملح والرز والسمن والبطاطة والصابون والمعكروني . وكلما وقع نظره على شيء هتف (هذا زين يفيدنا في المنزل حتى لا تخرج ام فوزي وتصطدم مع الجيران) حتى الفلفل والقرنفل والاقحوان وبزر الكتان وحب البخور دسها جميعاً في (الزنبيل) هيا ايها الحمال - صاح به - اتبعني فمشى هذا خلفه محدودب الظهر تحت حمله الثقيل . وكاد يصل الى دكان الأسكافي الا انه انتبه في اللحظة الأخيرة فاستاء وتردد ثم نكص على عقبيه (لا لا اريد ان ارى وجهه ! من هنا من هنا ايها الحمال) .

قام باستدارات كبيرة حتى وصل منزله . فدهش الحمال وقال له (لم كل هذه المتاعب ؟ كان بامكاننا ان نصل سريعاً . . . الطريق خطوتين . .

انظر كم قطعنا ؟ تمتم سعيد خجلا :

ـ حقك انت لا تدري . . هناك مسألة . . لا اريد ان امر بهذا الزقاق . اتعبتك انا آسف جداً . . ومع هذا سأدفع الك .

شرع سعيد مصراعي الباب فاندفع الحمال الى داخل المنزل . وبرزت زوجته من المطبخ . يدها ملوثة بالسمن وفوق انفها لطخة سخام كبيرة . ابصرت بالحمال فوجدته رجلا يافعاً قوي العضل ، فهجمت على عباءتها تريد ان تلتف بها . فصاح بها سعيد : (من الحمال ايضاً ... تطوري كفى . . في اوربا النساء بالمايوهات) . فخجلت فهيمة وقالت في صوت حاد :

ـ الا ترى ثوبي ؟ انظر فيه ثقوب . لاحظ سعيد ثقباً كبيراً في ظهرها يطل منه لحمها (ما هذه الخرق البالية ؟ اين اثوابك الجديدة . . . دائماً قذرة تشمأز منك النفس) فطأطأت رأسها وزاد اضطرابها وتمتمت في صوت خافت :

ـ ماذا البس في المطبخ ؟ اتلف ثيابي الجديدة

ـ في المطبخ في المطبخ لا ادري ما هو هذا المطبخ هل هو مدبغة جلود او مصنع صابون ؟ المطبخ مكان الطعام مكان نظيف فيه رونق وجمال وحشمة يهمني نظافة المطبخ اكثر من نظافة الصالون .

هيا فرغ الأشياء ـ صاح بالحمال ـ وتولى سعيد عملية افراغ واملاء وتنظيف خزانة الطعام والرفوف والدواليب . وعات زوجته الى المطبخ تهيئ الطعام فلم يسأل عنها ولم يحتج اليها ، أتى بجرائد قديمة وضعها على رفوف

الخزانة ونظف الزجاجات وملأها بالملح والاشياء الأخرى وسكب السمن في القارورة بعد ان فحص قعرها خشية ان يكون فيها فأر ، كل شيء على ما يرام ، تمددت اعصابه وهدأت وأحس بالراحة التامة التي لا يستطيع انسان على سطح الأرض ان ينال منها شيئاً .

كان ذلك اليوم من الأيام البهيجة في حياة سعيد ، مون بيته بالطعام ووضع كل شيء في مكانه وانتقد زوجته كزوج غيور شهم قوي على لباسها المهلهل القذر وبين لها اهمية المطبخ واعتناء الأوربيين به ، فاعترفت هي بهذا التقصير ووعدت ان تلبس ملابس نظيفة جيدة بالمطبخ اشترى لابنه دواءاً مقوياً ودهناً للقروح ، وفي المساء خرجت فهيمة وعادت بعد ساعة معها علبة (بودرة) وصبغ شفاه وكريم للوجه وعلبة اخرى لم يعرف احد محتوياتها ، ابتسم سعيد في سره (هذه ضريبة الجمال قد دفعت بالتمام) .

خطر له ان يخرج مساء هذا اليوم للتنزه ، ارتدى ملابسه النظيفة وعقد على رقبته ربطة كبيرة ، سلك المنعطفات الطويلة رغبة منه في تجنب رؤية الأسكافي ، وجد نفسه في قلب شارع غازي . قطع نحو مائتي خطوة ثم اجتاز شارع فيصل وواجه الجسر المتين ، منذ مدة طويلة لم يعبر هذا الجسر ، لابد ان النسيم سيكون منعشاً مغرياً هناك .

شدة الحر دفعت جمهوراً كبيراً من الناس الى الانطلاق فوق الجسر ، رأى النساء السافرات في فساتين ملونة بلون الفراشات يتخايلن في

رشاقة وعظمة معظمهن عاريات الأذرع تبدو اكتافهن الطرية البضة ، كأن الدنيا تبتسم في وجوههن ، كل شيء كان ينظره سعيد بعين راضية مبتهجة .

قطع مسافة طويلة اخرى في شارع الصالحية فلذ له ان يقعد هنيهة على احد مقاعد المقهى ، شعر انه يتنفس بحرية و كأنه قد سافر الى بلد جديد للتفرج والاصطياف كل شيء يثيره وكل شيء يدرسه باهتمام . قد صفا ذهنه وانجاب عن صدره عبء ثقيل ، خيمت الظلمة واضيئت الأنوار واشتد انطلاق السيارات وتجاوبت الأغاني من كل مكان انصت الى الراديو وسمع نشرة الاخبار السياسية تحلو له فى ايام الصفاء ولذا فهو فى كل شهر او شهرين يسمع نشرة اخبار واحدة . بعض البلاد النائية الصغيرة قد غابت عن ذهنه الراديو يذكره بها فيدهش كان يتساءل (جاميكا وهايني لا زالتا موجودتين) وبلاد اخرى ينسى موقعها على الخارطة فيجهد نفسه لاستذكارها فلا يفلح فيهز كتفيه بغير مبالاة (العالم كبير ماذا افعل ؟ احفظ كل شيء) .

نحو الساعة التاسعة غادر المقهى عائداً الى المنزل ، لاحظ الملاهي قد ابتدأت عملها اجواق شعبية شرقية تعزف ورنين الكمان يأن على الوتر الرفيع وضربات العود تهدر عالية ، وصوت مغنية تغني بصوت شجي اغنية قديمة ـ ربيتك صغيرون حسن ليش انكرتني ـ

عادت ذاكرته القهقرى الى الأيام الخوالي يوم كان يرتاد الملاهي

ويجلس بالصفوف الأمامية ويعب كؤوس الخمر عباً ويصفق للمغنية التي تعجبه وتطربه .

هذه الذكريات تبدو بعيدة كأنه عاش بعدها قرنين كاملين .

بدأت لفائف دماغه تتحرك ببطء مثل الساعة التي أدركها تعب مفاجىء . اتخذ قراراً في الحال (اللهى . اللهى سأقضي ليلتي هذه في اللهى) وجد نفسه بعد عشر دقائق في مكان بارز في حديقة اللهى أمامه منضدة صغيرة عليها غطاء أبيض نظيف ووعاء من المعدن لأعقاب السجائر وحوله ثلاثة كرسي أخرى خالية من الخيزران . أمامه مسرح كبير مضيء بأنوار ساطعة وفوقه العازفين ومغنية نحيفة بيضاء الوجه قد احتضنت المكروفون لتصب فيه أغنية من أحسن أغنياتها . وضع أمامه علبة السجائر والثقاب وتلفت حوله في أرجاء المكان . أشجار كثيرة باسقة من الكالبتوس والدفلة وظلال كثيفة . شعر برغبة ملحة في التعرف على الجالسين تفحصهم واحداً بعد واحد فلم يجد بينهم شخصاً يعرفه . جلهم من الصبيان المتأنقين الفارعين وبعض الموظفين من الدرجة الرابعة عشر وآخرون شيوخ وأعراب .

لاحظ الراقصات قد انزوين في الأركان المظلمة تحت لفائف الشجر عليهن بدلات في غاية الاناقة يتحدثن مع رجال أثرياء . كؤوس من الشراب الشمبين . البراندي والويسكي تصعد برفق الى الشفاه الملطخة بالأحمر فتتهد سعيد .

ظهرت على المسرح مغنية ووقفت أمام المكروفون تغني أغنية عصرية

شائعة . أصوات الجوق متنافرة وحشة . وهناك قطة بيضاء سمينة رابضة على المسرح تلتقط الحشرات الصغيرة والجراد ، تأمل سعيد القطة كيف تفاجيء الجرادة وتلتهمها بين أسنانها الحادة .

استعرض حياته منذ أتى من البصرة ودخل مدرسة دار المعلمين الابتدائية ، كانت معه شهادة المتوسطة . درس ثلاث سنوات متوالية دراسة مضنية متعبة وشغل نفسه بدراسة الأدب العربي وحفظ الدواوين والمعلقات . ثم عين معلماً في سامراء لأول مرة ثم في مندلي والسعدية وبغداد وعلي الغربي وخانقين والموصل ثم فى خانقين واخيراً في بغـــداد . ثم زواجه في الموصل تذكر ايام غرامه بفهيمة يوم كانت فتاة حيية نحيفة نحيلة ضعيفة الخصر صغيرة الصدر . احبها واحبته وتغازل معها زمناً . كان بيتها جوار مدرسته فكانت تطل برأسها عليه وهو في الصف فتبتسم له وتختفي ثم تزوجها ، منذ يومها ذاك بدأت تترهل وتسمن لم يعد لها ذلك الخصر النحيل الذي طالما سبى لبه ولا تلك النظرات الحيية الخفرة ولا ذلك اللسان الضعيف المؤدب . لم ينس شتائمها في ذلك اليوم فانها واحدة من بنات الشوارع .

ظهرت راقصة على المسرح بطنها تهتز على انغام الكمان وصدرها ناهد متوثب وجسمها مكيف طبقاً لمشتهيات الرجل . تلذذ سعيد بمشهدها ومط شفتيه . لعن الشيطان ولعن زوجته السخيفة القذرة فانها كيس من اكياس القطن . غاص في احلام لذيذة . ثم استفاق على حين غرة ،

اسف لمثل هذه الأفكار الفجة الذي راودته رغماً عنه .

وقعت عيناه على منظر غريب فحملق فيه بدهشة من هذا ؟ فؤاد نعم فؤاد تلميذه القديم منذ خمس سنوات . تذكره سعيد جيداً كان كسولا كثيف المخ برع في قراءة النشيد والرياضة البدنية ، يلمع نجمه ايام المسابقات والاستعراضات وايام الامتحان يغش ويسترق النظر الى اوراق زملائه المجتهدين .

كان قاعد على كرسى من الخيزران فى وسط الجوق ، مرتديا قميص ابيض وسروال من السرج ، شعره كثيف اسود حسن الترجيل وعيناه كبيرتان كعيون لص .

لاحظ سعيد ان له مكانة مرموقة بين اعضاء الجوق واحيانا كثيرة تنحني نحوه المغنية وتهمس في اذنه حديثاً هاماً كأنها تستشيره فيما يجب عليها ان تغني .

تقاطعت نظراتهما فبهت ضارب العود وسلم بيده الممسكة بالريشة على استاذه سلاماً في غاية الود والاحترام ، وابتسم ، وفي فترة الاستراحة جلس الى جواره . هتف ضارب العود بشوق .

ـ اهلا يا استاذ سعيد . . . اهلا وسهلا تشرفنا . ما هذه الزيارة الغريبة لم ارك هنا قبل اليوم .

تحير سعيد واجاب :

ـ منذ زمن طويل تركت ارتياد الملاهى . اما الليلة فقد شعرت

بالضجر ثم صادف مروري على الجسر فاشتقت ان اقضى ليلتي هنا .

ـ احسنت صنعاً . . . ملهانا خير الملاهي محتشم وراقي والراقصات من احسن الفنانات . . . انا فرح بوجودك هنا .

ـ سأل سعيد متلعثماً :

ـ كم عددهن ؟ هل هن كثيرات ؟

ـ هن عشرة واحياناً اثنتي عشر ... اثنتان فقط ترقصان والباقي مغنيات .

ـ عدد كبير !

تلفت ضارب العود حوله فوجد استاذه بدون كأس ، ومنضدته فارغة فسأله مستغربا :

ـ انك بلا كأس الا تشرب ؟ سأدعو لك كأساً ، لاتعارض سيكون على حسابي انا .

واحضر له الكأس في الحال ، فارتشف سعيد ثلاث رشفات متوالية وقرض بين اسنانه قطعة من الطماطة ، فشعر بالنشوة ، تلفت حوله متقصياً كل ارجاء الملهى حتى الزوايا المعتمة تحت اشجار الكالبتوس والدفلة ، فشاهد الراقصات منتشرات هناك على الموائد برفقة الرواد الأثرياء .

امطره فؤاد بعبارات الترحيب حتى اخجله ، لم ينقطع ترحابه لحظة . اهلا بالاستاذ تشرفنا انت ضيفي ، انا مسرور بلقائك ، سأله :

ـ كيف حالك بالتعليم ؟ هل انت مرتاح ؟

ـ كلا ، اجاب : لست مرتاحاً المهنة شاقة تتعبني ٠

ـ آه انا اذكر جيداً اتعابك معنا ، اتذكر ؟ كنت غبياً انا ، لم افهم شيئاً ها ها ها لغة صعبة الفاعل والمفعول ٠

ـ هل لا زال الفعل الماضي مبني على الفتح ؟ اثار هذا السؤال اقصى ما ادخره سعيد من مرح ٠ فانطلق مقهقهاً وقهقه معه تلميذه ٠

ـ هل يتغير هذا ؟ مبني على الفتح منذ امرؤ القيس وسيبويه وحتى زمن عدنان وقحطان ولا زال ها ها ها ها هذا ظريف سؤال ظريف جداً ٠ هاهاها واستمرت ضحكته عدة ثوان متوالية ٠

تركه تلميذه والتحق بالجوق بعد أن أتحفه بكأس أخرى . إبتدأ الغناء كان فؤاد نفسه يغني هذه المرة ويضرب على العود ٠ أغنية مرحة شائعة ، (على ورق الورد حا أكتب لك) كان يغني بصوت شجي عميق النبرات نال استحسان الجالسين وخيل لسعيد ان فؤاد يغني له وحده احتفاء به ٠ فسر وهز رأسه وضرب المائدة بكف يده منتشياً ٠

عاد إليه مرحه الذي فقده منذ عشر سنوات وعاد اليه شبابه القديم يوم كان يخمر في الملهى وينحدر بعد منتصف الليل الى المواخير فيمزح مع البغايا ويربت على خدودهن ويلهو ويغني ٠

في نحو الساعة الثانية عشر عاد الى منزله يتمايل ويردد في صوت خافت آخر اغنية سمعها في الملهى ، لم يبال بشيء ولم يستغرب سلوكه

الشاذ . مر بدكان جاره الاسكافي بدون تحرج ووقف عند بابه المغلق. هز الأقفال بيده بشدة وضرب بكفه على صفيحة الباب صاح :

ـ اين انت ايها الجبان ايها الأسكافى الحقير صاحب اللحية ، اين انت الذي اعتديت علي اعتداء وحشى ، لمن اخافك بعد اليوم .

فكر ان يدس عود ثقاب ملتهب من تحت الشقوق فيشعل جلوده واحذيته ويجعله يلطم على وجهه صباح الغد من هول النكبة التي ستقضي على بقية عمره الرذيل .

ـ لا لا ، آسف ـ ليعش هذا المسكين الذنب ليس ذنبه هو احد ضحايا سوء التربية لا اريد شراً باي انسان ، اود ان احيا بسلام ، لست مجرماً لست شريراً ، ومضى في سبيله .

* * *

في الصباح لاحظ استياء زوجته منه ، لم تغب عنها سكرته ليلة امس ضايقها على السرير ولطم وجهها وازعجها من نومها وتحملت رائحة فمه الكريهة ، قالت له معاتبة :

ـ بدأت تسكر يا سعيد هل عدنا من جديد ؟

ـ يعني انا حيوان مسجون في قفص .. احياناً اغشى الملاهي واسكر .

ـ الملاهي ايضاً ، هل عدت صبياً ؟ انت صاحب عائلة واطفال ، ما تدفعه في الملهى انفقه على اطفالك ، اردفت في توسل .

ـ عدني الا تسكر مرة اخرى يا سعيد ارجوك الحالة لا تسمح

انت تفهم هذا حنق سعيد . وصاح ساخطاً .

- تنصحيني ؟ انا لا ادري واجبي . هذه مسرة تافهة لا تؤذي احداً ، الأطفال والايجار كلها على خير حال ، انا انا الذي اتلف انا بقرة انفع فقط ولا انال غير الحشائش اقتصدي انت لم اعد احتمل بعد . صحتي انهارت واعصابي تحطمت واخشى ان يفصلوني من الوظيفة .

مضى شهر واعقبه آخر ، سعيد حريص على تطبيق اوامره المشددة لم يسمح لأولاده بالاختلاط . واحياناً عندما تضيق صدررهم يصحبهم الى حديقة عامة فتاتي فهيمة كذلك تسير وراء الموكب مشتملة بعباءتها ، تلم بها بدنها السمين . لم تجرأ على معاندة زوجها بشيء ، تجده مسروراً بدكتاتوريته الصغيرة فلم تشأ افسادها عليه .

دائماً في الحديقة يختار المصطبة البعيدة المنعزلة ، يتزود (بالحب) ليمتع به اطفاله ويعنى هو بدراسة اشجار الحديقة ونباتاتها ، واحياناً يتجاذب الحديث مع الحارس والبستاني ، ويتناقش معهم حول الأشجار النابتة في العراق والأشجار المجلوبة من الهند .

الأطفال يلعبون حوله بحيث يكونون تحت انظاره ، لايفتأ يناديهم ويرجوهم الاعتناء بنظافة ملابسهم ، وفهيمة تبقى صامتة تأخذ حصتها من (الحب) وتقرضه بهدوء مثل الببغاء ،واذا مرت بها سيدة انيقة سافرة، تفحصت ملابسها بدقة وحللت ادوات زينتها واعطت رأياً في محاسن وجهها ، فينظرها سعيد من زاوية عينه ويبتسم .

ـ ها فهيمة كيف وجدت لباسها ؟ اراها رائعة فتانة ملابسها أنيقة . يعجبني هذا التفصيل .. ولكن لا يليق لك .

فتفزع وتسأل :

ـ لم لا يليق بي ؟

ـ هي نحيفة خفيفة ، انت والدة اطفال وسمينة .. جسدك كبير

ـ اية سمينة ! انا لست سمينة .. شيء عادي ،ضعيفة احسن كالعصا.

* * *

زوجة الاسكافي بدأت تنشر شبا كها وتتحين الفرص للسلام على فهيمة تلتقي بها في السوق فتسألها عن اسعار الباذنجان والطماطة ، واللحم وتتحدث عن غلاء الفاصوليا وندرتها ، واحياناً اخرى تصطحبها الى المنزل ، تتحادثان في الطريق في امور عامة دون ان تجرأ احداهما على دعوى الأخرى . ولاحظت فهيمة ان الاسكافي صار يبش في وجهها ويرحب بها ويلاطفها في الطريق ، فبدأت تلين ، ولكنها لم تجرأ على مصارحة سعيد بشيء .

افتتحت المدارس وعاد الى القاء دروسه في اللغة العربية ، القواعد المعادة تخرج من فمه كل سنة بلا تغيير كالاسطوانة التي لاتزيد ولاتنقص

ذات ليلة عاد الى منزله متأخراً ، كان المطر ينهمر مدراراً والاوحال كثيرة قد غطت الطريق كله فصارت قدماه تغوصان في برك الماء ، فنفذ الى حذائه وجوربه وبللهما ، يعلم ان حذائه قديم ، جلدته السفلى بالية مثقبة

وعجزت المسامير المتهرئة عن امساكها . وفي تلك الليلة وصلت مرحلتها الأخيرة ، انحلت الجلدة تماماً وصارت كلسان الثور تصعـــد وتنزل فلعن سعيد حظه ، حتى الحذاء بدأ يتململ تحت قـــدميه وينادي بالاصلاح .

في الصباح دعا ابنه وقال له :

ـ خذ حذائي هذا يا فوزي واصلحه عند الأسكافي ، لا الاسكافي جارنا ، حذار ان تقترب منه ، اسكافي آخر بعيد .

وصدع فوزي بالأمر تناول حذاء ابيه وخرج به مسرعاً مر بالأسكافي الجار دون ان يلتفت له . الا ان هذا ابصر به ولاحظ الحذاء (الجريح) الممزق فوجدها فرصة ثمينة لاتضيع لمصالحة جاره ، فقفز من مكانه وامسك بفوزي اين انت ذاهب يا فوزي ؟

ـ اصلح حذاء والدي اتركني . . . منعني من التقرب اليك .

ـ هات الحذاء انا اصلحه لأبيك ، انتزعه من يد فوزي بقوة وهو يقول باستياء :

ـ الا تخجلون ؟ الا تستحون . نحن جيران اصدقاء . لمهذه الجفوة الطويلة ؟ عجيب شجار بين اطفال ينتهي الى خصومة وعداوة بين الرجال . انا احب سعيد غاية الحب واحترمه . تعال تعال سأصلحه في الحـال لا تخف صاح فوزي حانقاً : (اوصاني ان ابتعـــد عنك اعطني

الحذاء) .

لم تجد صرخات فوزي جلس على طاولته القذرة المغبرة يصلح حذاء جاره اردف بصوت حنون (انتم مثل اولادي انا احبكم .. تعالوا عندنا العبوا وامرحوا .

احتار فوزي وهم ان يختطف الحذاء من بين يديه ولكنه اعجز من مقاومة تلك اليد الكبيرة الغارقة في الشعر .

شد الجلدة بالخيوط ودق جوانب الحذاء ودس في ثناياها مسامير كثيرة حتى اصلحها . قال بارتياح : انتهينا ، اصبح حذاءاً جديداً هيا معي يا فوزي سأحمله بنفسي الى ابيك . اريد ان اسلم عليه واعتذر له ونتصالح .

وصل الاسكافي بيت سعيد دق الباب بيده الكبيرة . فخرج سعيد وصعق ، صاح به غاضباً : ماذا جئت تفعل ؟

ـ تفضل حذائك يا عزيزي انا اصلحته لك ، قال الأسكافي بلهجة رقيقة اخوية : لا تغضب علي انا جارك وصديقك ، هي مسألة اطفال ، لم هذه الخصومة ؟

اثرت في سعيد عبارات جاره المؤدة الصادقة .

مد يده النحيلة ، فتردد سعيد وهم ان ينكص على عقبيه الى داخل المنزل .

اردف الاسكافي بصوت رقيق ، صالحني ياعزيزي ليست بيننا اية عداوة صالحني نحن اصدقاء اخوان جيران .

سمعت فهيمة ما يدور عند الباب فتركت مشاغلها واقبلت مستفسرة ثم خرجت الجارة واشتركت ايضاً فى عملية المصالحة . واخيراً تم الصلح وتمت المصالحة اما الجارتان فكانت القبلة الحارة هي الدليل النهائي للمودة الموقتة .

المأمور العجوز

في ذلك المساء بالذات ترك السيد قدري مسكن مدير الناحية وخرج الى الطريق المغبر الذي قامت على جانبيه مساكن صغيرة متهافتة من الطين الخالص لا نوافذ لها ، وانما لها باب ضخم ثقيل لا تجد فيه حتى خشبة واحدة سليمة من العطب والخدش ، وعلى الابواب الجدران المائلة وقف الصبيان الصغار يبدو عليهم التعب والملل ، من كثرة ما لعبوا ساعات النهار بالتراب ، وعلى حفر في المياه الآسنة ، فبدت وجوههم من خلال ظلال المساء الباهتة برونزية جامدة لا يخال للناظر ان ورائها عروقاً يجري فيها الدم . وتبدو جلاليبهم من فرط قذارتها كأنها من لون واحد ونسيج واحد . فى مطلع كل عيد « سعيد » تصيب أجسادهم ثوباً من القماش السميك الداكن اللون يعمل به الخياط مقصه يميناً وشمالا ثم يجمع القطع المبتورة تحت خيوط ماكنته فيخرج ثوباً غريباً مضطرب المقاييس . ان

القناعة كنز وتلك حكمة قد شدوا عليها بانيابهم وحرصوا على تطبيقها باصرار .

مشى فى طريقه وهو غير عابيء لشيء واى شيء يعبأ له الانسان في مثل هذا المكان المعزول البعيد ، فالمشهد واحد والصورة واحدة عن اليمين مزارع السيد (س) تمتد قرابة ثلاثة اميال ، حقاً ان لها منظراً فاتناً فجذوع النخيل سامقة ممشوقة الشطاط تستظل بظلها الوارف اشجار البرتقال والليمون وينبعث من ارجائها ومن لفاف شجرها زقزقة العصافير والبلابل ونعيق الغربان ، قد اجاد صاحبها في حراستها فصف على حدودها اكوام الطين حتى جعلها عسيرة المنال صعبة المرتقى . وعن الشمال بستان الحاج (ع) قد تأثر كثيراً بأساليب صاحبه فكتل الطين على بستانه وترك لها باباً يقف عنده فلاح شديد المراس . كلما اقبل من العاصمة ضيف ذو خطر وسيادة ، شرع الباب على مصراعيه ووقف الحاج المؤدب يؤدي فروض الطاعة والاحترام ، وبعد ذلك فالبستان حلال محلل تهوى تفاحاته وكمثراته وبرتقاله الى المعد الشبعة وعينا الحاج تدمعان من السرور والبهجة .

وعلى طول الطرق هذه المغاور التي يسكنها قوم من البشر . قاعد فى وسطها التنور والدجاج يتقافز وينبش التراب ويلتقط منه كل شيء حتى المسامير ، والكلب الكسول الشرس قد طوى ذيله وقعد على الأرض ينتظر وظيفته مع الظلام ، وبين آونة واخرى يبرز للسيد قدري من

اقصى الطريق شبح رجل يتقدم ملتف بعباءة خشنة ثقيلة وعلى وجهه لحية غبراء مشوشة فيلقى السلام ويسرع الخطى ثم يختفي فى صوب من اصواب البلدة ، اقبل نحوه السيد محمود حاملا سلماً خشبياً رفيعاً مع وعاء النفط. يقوم بوظيفته المتواضعة يسند السلم الى جذع الشجرة او الجدار ثم يرتقى درجاتها الهزيلة حتى يصل المصباح فيصب فيه قليلا من النفط ويزيل عن زجاجته السخام ويحكم وضع الفتيل ثم يجعله مضئياً وهكذا يمر بكل المصابيح حتى يصل الى مصابيح المدير التي تضيء عتبة منزله فهناك يزيد اهتمامه ويزيد فيها نفطه . كم يكون سعيداً حين يصادفه المدير وهو يقوم بتأدية واجبه ان يضع كلمات عابرة تتبادل بين الرجلين . الأول يؤكد اخلاصه وولائه وطاعته ويؤكد الثاني غطرسته وسيادته ويفترقان انه يعلم حق العلم ان معظم المصابيح المضاءة تطفأها الريح (الحنون) وتسود البلدة ظلمة مطبقة . ولكن ما اهمية كل هذا ان في البلدة مصابيح ترشد الناس وفوق هذا ان في المصابيح نفط يتقد . كان على الرجل جلباب ابيض نظيف وقد اطلت من جيبه علبة السكاير وفي قدميه نعلان جديدان ويبدو وجهه صبوحاً مشرقا رغم الشحوب والهزال اللذان يبدو ان عليه قيل انه في الصيف الماضي اصيب بالسل ثم شفي باعجوبة ولا زال الناس يعجبون كيف ان الرجل لم يأخذ مكانه على سفح التل ويرقد مع آلاف الراقدين . مر بالسيد قدري وقرأه السلام وتبادلا تحيات مجاملة رقيقة . اقترب من القنطرة فوجد عندها امة من النساء يغسلن لبوسهن واشيائهن فى الجدول

الوحيد في البلدة .

ويخرج من بستان السيد (س) ويقطع بعض احياء البلدة ثم يعرج الى بستان الحاج (ع) .

الاطفال قد تجمعوا مع امهاتهم ورأى السيدقدري ان بعضهم يقضي حاجته ويغتسل ورأى صاحب العربة قد عاد تواً من المحطة وفوق عربته نماذج قروية صغيرة . العربة تتمايل عجلاتها والحوذى يهتز يميناً وشمالا والخيول منهوكة هزيلة تليق جداً بالحوذى وركابه . في الليل يدع العربة في الطريق ويسوق حصانيه الى منزله . كثيراً من هؤلاء الاطفال لم يركبوا هذه العربة وكم تمنوا لو سافروا يوماً بالقطار وذهبوا الى المحطة محملين على مقعدها الوثير هذه الاماني الصغيرة تدور في رؤوس الغلمان .

قبل بضعة ايام قرأ قدري في احدى الصحف عن هذا الجدول الصغير القذر الذي اتخذه الناس مورداً لشربهم ومكاناً لغسيلهم وملعباً لاطفالهم ومكاناً تستقي منه الحمير مياه شربها وطالب الكاتب ان تنشأ في البلدة دار لتصفية المياه ومولدة للكهرباء بدل الفوانيس التي تطفأها الريح وتعيد للاذهان صورة مقيتة من صور القرون الوسطى ومما أدهش السيد قدري ان يعلم ان كاتب السطور هو شاب من شباب البلدة التي يظن بهذا الخمول وكم أسفه ان يعلم كذلك ان المدير غاضب حانق لا يريد صحفاً من هذه ولا يريد كتاباً على شاكلة هذا الشاب وكان يتمنى لو ان الكاتب استعمل بلاغته في مدحه واكباره بدل المطالبة بمشاريع لم يحن

حينها الآن .

ان الدنيا تتقدم وترتقي حتى في هذه البلدة الخاملة التي لم يلبس احد من اهلها سروالا يظهر بها شباب متوثب حي يقرأ ويكتب ويطالب وله في السياسة رأي . ولكن رجلا مثل المدير قد يوقف مجرى هذا التيار الطيب ويجد بعـــد حين ان المياه الكثيرة التي صدها قد تسللت الى الاعماق .

* * *

كان يحس بانحراف في صحته وبقلق مضجر بغيض قد اخذ نفسه من اقطارها هذه النفس الساكنة الوديعة التى عاشت في صدره خمسون عاماً مطمأنة هادئة لم يدر ما الذي اضجره واتعبه وذهب براحته كل مذهب . ان آلاما صغيرة لسنوات كثيرة تكتلت وتصلبت وجلست على قلبه كجبل من صخر ثقيل .

له عائلة كبيرة في بغداد تتكون من زوجة وثلاث فتيات في سن الزواج وابن صغير واحد يتلقى علومه في المدارس الثانوية تركهم جميعاً وجاء الى هذا المكان الضيق ولكن ما حيلته . تصدى له شاب حدث بيده وساطة كبيرة من رجل خطير فقلب الامور رأساً على عقب في وجه السيد قدري ، فالقوا به في هذا المكان كالنواة التي لا تنفع وبقي الشاب في العاصمة يكسب ويدرس في الحقوق وقد يأتي غداً الى البلدة كمدير جديد فيقف له الموظفون الشيوخ اكباراً واحتراماً وفزعاً .

حينما قبض راتبه في نهاية الشهر المنصرم قفل الى بغداد لرؤية اهله وعائلته وليجدد عهده بهم بدنانيره . في صباح يوم مطير كان يتجول في السوق بحثا عن سترة كانت وجهته سوق السراي وباعة الالبسة المستعملة هم هدفه وقصده . كلما رثت سترة من فوق كتفيه هبط على هذا المكان ليفتش له عن سترة اخرى وبينما كان البائع يشجعه على سترة معينه رأى امامه الشاب المهندم الذي حل محله في بغداد يختال في بدلة انيقة ومعه امرأة .

كان وجهها يشبه وجه ابنته سميرة ، فاحتار هل هي ابنته حقاً امفتاة اخرى . كان قد وضع السترة المستعملة على منكبيه والبائع في اغرائه تبقا محدثاً فلم يدعه يفلت من بين يديه حتى كان الشاب والفتاة ، قد ابتعدا كثيراً وضاعا في زحمة السوق . وظل هذا الخاطر المقلق يراوده في حدة واصرار وتمثلت له هذه المهزلة العجيبة شاب يراود ابنة الرجل الذي سعى لاقصائه واحتل وظيفته في بغداد . يقولون ان بغداد بلا مسارح . ايها الناس ان المسارح في كل مكان في البيوت وعلى قارعة الطرق وفي دواوين الحكومة يستطيع المتفرج ان يقهقه عالياً حتى ينقلب على قفاه ويستطيع ان يبكي بمرارة حتى تحمر عيناه . يعرف السيد قدري ان في بغداد شباب قد نخره الفساد وادركه ظمأ جنسي والصيد بالشباك يقع في الطرقات والسينمات ، كل قد خرج بفنه وبراعته وضروب اغوائه وفتونه . ماذا سيكون مصير ابنته سميرة ماذا ستصنع في غياب الوالد

المحترم ؟ ان في اليوم اربع وعشرون ساعة ممكن ان يقع فيها اربعة وعشرون حادثاً كل منها كفيل بتقويض كيان اسرة .

في صباح اليوم التالي قام الى فطوره فهيأه بنفسه ولاجل ان يوفر على نفسه المتاعب يكتفي بايسر الاطعمة واهونها صنعاً . شاي مع قليل من الحليب ولقمتين من الخبز على رأسها شيء من الزبد . ثم ارتدى ملابسه واتخذ سترته تلك التي اشتراها من سوق السراي . ليست انيقة ولكنها على كل حال شيء لهـــا مكانته واهميته . وبارتخاء وببطء خرج الى الطريق .

وظيفته مأمور استهلاك ومحل عمله غرفة صغيرة معتمة داخل خان قذر وسط سوق مزدحم . كان الصباح مبهجاً بالشمس الساطعه على الطريق ظلال الاشجار العالية الوارفة من بستان السيد (س) وانغام شدو الحمام وزقزقة العصافير تأتي منعشة سارة والفلاحون قد خرجوا من مكانهم يسوقون امامهم حميراً صغيرة تدب على الارض في خفة وتثير ورائها حفنات التراب . والمدرسة الابتدائية الوحيدة في البلدة تدق في جرسها وتدعو الطلبة الى الاجتماع والمعلمون يهرولون ويحثون الخطى في بدلات عتيقة واحذية ضخمة مرقعة ومنظر اطفال الصف الاول مضحكا قـــد حضروا بلا احذية وبلا سراويل كل بيده كتاب الخلدونية يعيد على نفسه درس اليوم ودفتراً قذراً ممزقاً قد قبضوا عليه بشدة لئلا يشرد من بين

ايديهم .

وموكب المدير يختال في ابهة قاصداً ديوان عمله . والفعلة البسطاء قد احتشدوا على المقهى ينظرون في احترام بالغ . اما السيد قدري فهو في طريقه الى السوق يمشي منفرداً مطرقا تحت ابطه سدارته السوداء العزيزة وشعرات رأسه في جهد جهيد استطاعت ان تسد الصلعة القابعة على الرأس يمشي في تؤدة واحترام والبسطاء الجالسون في المقـــاهي لاينظرون اليه فى احترام كبير ولا يجدونه رجلا يبطش ويخيف .

عند ما اجتاز السوق ودخل الخان شعر بمزيد من التعب والاعياء وبدوران خفيف يصيب رأسه راح يحدث نفسه . فى هذا الوكر القذرفى هذا الخان الذي ترابط فيه الحمير والبغال والخراف وعلى ارضه الخضار العفنة والفواكه الفاسدة وعلى جدرانه غبار وقاذورات عشرات السنين وفى غرفه ينام المشردون والحفاة والشحاذون والغرباء واللصوص من كل لون من الناس ينامون ويشخرون ويلقون الفضلات على السلم فتح النافذه وهتف فى حسرة . هذه دائرة السيد قدري هذا ديوانه ومكان عمله . خدمة عشرون سنة تم فى هذا المكان الذي تأبى ان تعيش فيه الكلاب . ماذا اصنع شاب فى سن ابني يأخذ مكاني بقوة (الكارت) ويبقى فى بغداد سعيداً وثم ماذا يصنع يلاحق ابنتي سميرة ويغازلهاويخرج معها الى السوق . انني لا استطيع ان اتنفس هذا الهواء كل شيء هنا يخنقني يجب ان اذهب الى الوزير وابسط له شكايتي

كانت الحركة في السوق قد بلغت مداها ، رحى المعركة يدور في عنف الباعة في جهة والمشترون في جهة والسلاح الورقي يستل ويغمد في الأحشاء والبطون ، تكا كأوا عليه كالذباب . « هيا سجل لنا اغنامنا وابقارنا وحنطتنا وشعيرنا وفواكهنا واقطع لنا وصلا » . اخرج مفتاحاً صغيراً من جيب سرواله وفتح به الخزانة الصغيرة القاعدة على طرف المنضدة واخرج منها اوراق ووصولات مختلفة . ثم راحت الدنانير تمطر عليه مدراراً فيعدها سريعاً ثم يحشرها في الخزانة ويده النحيلة ممسكة بالقلم تضغط به على الأوراق فتخرج ملوثة بكتابات سريعة مشوشة ويجري عليها في اسفلها فيضع السيد قدري توقيعه الصغير الذي يشبه الذبابة .

دائماً الدنانير تخرج من جيوب كثيرة مختلفة وتنساب في رفق ونظام الى الخزانة الصغيرة لتبتلعها في جوفها ثم ينقلها الى خزانة كبرى في بغداد ولا تعود مرة اخرى .

كان يعمل بسرعة وخفة ليستا من وحي القوة بل في شيء من العصبية والحدة والضجر ويبتسم في غالب الأحيان ابتسامة صفراء باهتة كأنها كانت الى آخر لحظة شهقة بكاء فتحولت على وجهه الى ابتسامة ويأتي بحركات تلقائية لا معنى لها حتى تكون الساعات الست قد انصرمت فيخلو ديوانه من الناس ويشعر كل شيء في الغرفة تعب مستنفذ حتى حجارة الأرض ، فيجمع اوراقه واشياء عمله ويعيدها جميعاً

الى مواضعها ، ويوصي الفراش ان ينظم الغرفة ومقاعدها ويحكم قفل الباب ويلحق به في المنزل وفي طريقه يجد السوق قد لفظ الكثير من رواده . والباعة عند ابواب دكاكينهم يستمعون في شوق لى طنين الذباب فوق رؤوسهم وبضعة كلاب رابطة عند موضع الجزارين ولحوم الماشية والأبقار معلقة في اهمال على المشابك وعلى الأرض عظام قد اختلط بها الطين وباعة الأقمشة قد احتفظوا بنظافتهم ونظافة اقدامهم ، النســـاء يساومن على الحرير الناعم اللين ورجال مثل الاعراب مقبلون من البادية يريدون ثوباً من النوع الذي يعيش اثنا عشر شهراً .

يجد السيد قدري زملائه الموظفين قد خرجوا من دوائرهم كل على قدر اهميته معاون الشرطة في صف من رجاله والمدير مع كتابه وحراسه والمعلمون يسيرون في هرج الصبيان ، كانوا جميعاً شباناً في مقتبل العمر عليهم بدلات لائقة وشعورهم مصقولة ومرجلة فوجد نفسه بينهم كالشمطاء النادبة . لم يبق في البلدة عجوز سواه هو وحده يضع الصباغ على شعر رأسه وهو وحده يشكو الروماتيزم وسوء الهضم وهو وحده الذي تساقطت اسنانه وغارت وجنتاه وادركه الهرم . حتى حدث ان تشاجر مع احد الموظفين فسمعه يقول مازحاً مستخفاً : « هذا مأمور استهلاك أم مأمور مستهلك ؟ » وراحت هذه التسمية تدور على الألسنة في الخفاء حتى سمع يوماً احد الباعة يصرخ في وجهه ايها المأمور المستهلك فاستشاط السيد قدري غضباً وهم ان يمسك بتلابيبه ويلطم وجهه ولكنه وجد امامه عملاقاً

ضخماً مرعب الصورة فكظم غيظه وصحح للقائل خطأه : يجب ان تقول مأمور استهلاك لا مامور مستهلك وكفى .

* * *

في المساء لم يذهب السيد قدري الى منزل مدير الناحية وان كان يعلم ان تغيبه من الأمور التي يستلزم لها ايضاحاً والا كان في نظر المدير من المخالفين . اشباع غرور هذا المدير من الواجبات الادبية الملقاة على عاتق كل موظف . يجب ان يحضر وينصت ويؤكد وينتهز المناسبات الطيبة الفريدة ليشيد بعمران البلدة ومطارحها وما اكتسبت من رونق ولطافة خلال عهده السعيد . ان الرجال التافهين يبحثون عن المجد في المجالات التافهة . كان السيد قدري يشعر بمزيد من التعب وبمزيد من الحاجة الى الراحة .

فدعا خادمه واوصاه ان يضع له الشاي ويمكث الى جانبه . تمدد في فراشه خائر القوى شاحب الوجه قد انفرطت شعرات رأسه المصبوغة وراحت الى الوراء فالتمعت صلعته الكبيرة تحت ضوء المصباح الباهت كان يعاني انفعالات حادة في نفسه فارتسم على وجهه الحزين غيظ مكتوم متجرد لوشاء لهجم على اثاث الغرفة جميعها وهشمها في غضب ونقمة . الفراش قذر مهلهل وتحت رأسه وسادة صلبة كأنها لوح من خشب وعلى الجدار مشجب قديم . ترسو عليه ملابسه الكثيرة الوسخة منها والنظيفة . وفي خلال الفترة التي كان فيها الخادم يروح ويغدو لتهيئة الشاي انصرف

ذهنه الى نفسه . انه قد قارب عامه الخامس والخمسين وان كان في سجلات الدولة في نحو الخمسين وان احالته على التقاعد من الامور المحتملة ولكنه لم يجزع لهذا الخاطر . كم يود ان يرتاح بضع سنوات قبل ان يموت . يعيش كأي رجل متقاعد في بغداد يستمتع بنوم الصباح ويمشي الى مقهى عارف اغا فيلتقي بجموع مختارة من امثاله يشرب الشاي والقهوة ويثرثر طويلا في امور الحكومة . ايه ما الوظيفة الصغيرة انها سجن وعبودية . تذكر المدير ذلك المهندم المغرور الذي يصر على حضور السيد قدري لاشيء إلا ليشبع خيلائه وليقول الناس حتى الموظف المسن العجوز يحضر جلسات المدير فكم هو محترما وعظيما .

وبناته السيدات الصغيرات الجميلات انهن في بغداد بلا والد يرعاهن ويشرف على مصيرهن وذاك الشاب الذي رآه صـــدفة في السوق . كانت سميرة تسير معه بلا ريب وانه يطاردها ويلاحقها ويحوك شباكه حولها .

قد تقع يوما في الهاوية فيقف يضحك ويتباهى ويقص قصة حبه على معارفه في المقهى أليس ظريفاً ان تحبني احد الفتيات الجميلات ؟ يتشدق باقاصيص غرامه وراء كل قصة امرأة طيبة في المجتمع يبتلعها العالم الدنس وتذهب في صفوف الساقطات .

لو كان في صدره شيء من الايمان لتلطفت افكاره واستقامت واستقبل النهاية المحتومة بنفس رضية قانعة ولكنه شكوك مرتاب قـــد

استجاب منذ زمن طويل لداعي الشيطان . لم تعد الحياة في نظره إلا صورة مشوشة مربكة فكم حرى بالناس ان يعيدوا نظامها ويصلحوا حالها ويرتبوا شؤونها . انه في وظيفته مرتب منظم . ليس من ورقة الا لها محفظة ترتد فيها وليس من فلس إلا له باب يدخل فيه اما الحياة فاورافها شذر مذر وفلوسها تدخل وتخرج . تصب صباً في خزانات وتنضب نضوباً من خزانات اخرى ولا احد يدري لم تدخل هنا ولم خرجت من هناك . انها لفوضى .

وعلى حين غرة انس في نفسه شيء من القوة فقام الى ملابسه وحطها عليه ثم راح الى المرأة يعيد عليها تنظيم شعراته ثم كان في الطريق . كان المساء قد نشر ظلاله الكئيبة السوداء واضواء المصابيح تلتمع في كل مسافة كأنها قناديل في ضريح وقليل من المارة يتحركون ويسرعون ويتحدثون بصوت عال والمقاهي قد أشعلت مصابيح وهاجة معلقة على الواجهات والمذياع يدوي باغنية مرحة واكواب الشاي محمولة على الأيدى ترتشف بشوق ورؤوس حاسرة ومعممة بالمناديل تهتز على النغمات . اشرف على منزل المدير وهم ان يدخل إلا انه سمع قهقهات حادة تنبعث من الداخل فتردد . شعر بضيق في صدره وتهافت في قلبه . من بعيد كان قطيع من الاغنام يتقدم نحو البلدة ودواب محملة بالخضرات تتجه نحو السوق . فى الغد كل هذه تأتي الى مركز عمله فيقبض عنها ضريبة وويل لمن لا يدفع فعاد الى منزله متعباً لا تكاد رجلاه تحملانه .

وفي صباح اليوم التالي لم ينهض السيد قدري من فراشه ولم يذهب الى السوق ويدخل الخان القذر بل كل ماحدث ان فوجا صغيراً من الموظفين مع المدير المحترم ورجال البلدة واهلها حملوا على اكتافهم تابوتاً متواضعاً وضعوه في سيارة مكشوفة فانطلقت الى بغداد .

على حقيقته ...؟

الليل حالك السواد ، والريح الباردة القارصة تهب بلطف ورقة فتصيب وجوه المارين القلائل فتجعلهم يسرعون خطاهم صوب منازلهم القريبة وحفيف الأغصان الرقيقة التي ظللت الطريق تهتز مترافقصة فوق الرؤوس كان هو الآخر بين من يمرون في تلك الساعة من الشارع الرئيسي فى البلدة قد التف بلباسه الأسود الداكن وادخل كفيه في اكمام ثوبه الكبيرة . أطبقهما قوياً فوق كرشه الثقيل .

اجتاز منازل البلدة ثم ناسها وا كواخها والقى نظرات سريعة من وراء عويناته السميكه على بضعه فلاحين قد تجمعوا على ابواب اكواخهم يوقدون النار أو يشدون دوابهم وبقراتهم الى الاوتاد . وقد التفوا بلباس خفيف مهلهل . واقدامهم حافية يتحركون في الظلام كالاشباح .

ومن بعيد كان احد الخفراء يتمهل على الطريق وقد تنكب بندقيته .

وعصب راسه بشال كبير وحذاؤه العسكري العتيق يدق به على الأرض المبلطة دقات مزعجة حتى وصل المقهى فدلف اليه وراح يصطلي بالنار المتقدة المشبوبة مع جماعة مرتعشةمن العمال والفلاحين . وهدأ الشارع وخلا من كل عابر فتراءت امام عيون صاحبنا المزارع والبساتين الكبيرة التي تمتد الى مسافات شاسعة . وقد خيم على اشجارها ونخيلها سكون عميق موحش .

كان ذلك هو الكاهن قد خرج من توه من بيت رجل كانت والدته في مرض شديد فاستدعى لها الطبيب الوحيد في البلدة ودفع له اجره مضاعفاً ثم راح الى الصيدلي وجلب لها بضع قنان ملونة زاهية عليها اوراق جميلة مكتوب عليها كثير من الكلمات المبهجة . . !

شاهد الكاهن كل ذلك يقع امام عينيه لاشك ان اجرة الطبيب باهظة . وهذه القناني التافهة التي تكلف غالياً لاجدوى منها سوى التفاخر بها امام الأصدقاء والأقرباء واراحة الضمير من ان المريض قد نال كفايته بل وفوق كفايته من الدواء وان ارادة الله كانت في النهاية اقوى وانفذ . . !

كان الكاهن يفكر ويحدث نفسه ان الرجل الذي زاره الليلة ثري مفتوح الكف قد اصابته في الأيام الأخيرة نوبة من الكرم والعطاء قد لاتمتد الى أجل طويل . . !

انه بائع خمور في البلدة وقد تجمع له مال كثير من السكارى والشقاة

وأهل البؤس . ومن كل هؤلاء الكتل المتراصة المعدمة التي تندفع مع الظلام الى الحانات الحقيرة القذرة والزوايا المعتمة الكئيبة يحتسون المسكرات في كؤوس الشاي أوفي كأس كبيرة واحدة تدور على الافواه ثم يأكلون بعدها الحمص البارد . أو يقرضون قطعة وسخة من الفاكهة. ويترنحون في آخر الليل الى منازلهم ، لم يكن هذا موضع اهتمام الكاهن حتى ولم يفكر في السكارى والشقاة والحانة الحقيرة المظلمة والزوجات والأبناء الذين يترقبون عودة سيدهم بالخبز واللبن فيجدونه مخموراً تعساً قد انزلق في الطين وتلوث سرواله وهو يلعن ويصخب والبصاق يتدفق على حواشي فمه .

انه كان يفكر في المرأة المشرفة على الموت . . ويفكر في كسبه الحلال الذي قد ضاق وتقلص منذ ان لفظ آخر ميت انفاسه منذ شهر .

كان ثرياً حقاً بذخ اهله واقرباؤه في تشييعهودفنه واقامة الصلاة على روحه فاصاب هو نفسه نصيباً لازال يذكره بسرور وابتسام . حقاً ان الأعمار بيد الله والدعاءبالحياة وطولالعمر منالوجائب الفاضلة . ! ولكن ماعساه ان يصنع وقد اصابته هذه اللوثة الخبيثة التي دخلت على قلبهوعقله وافسدتهما وجعلته لايحفل بشيء قدر احتفاله بالمال . . !

في الربيع الماضي قدم هذا الكاهن الى البلدة وكان فقيراً طاوياً يتعثر في ثوب اسود طويل قذر وقد علق الغبار بوجهه ولحيته . . واعلن للناس ان الكنيسة بحاجة الى « جرس » لانه مظهر اساسي من مظاهر الكنيسة

وراح يتسقط بجسمه و كرشه كل انسان يصادفه حتى تجمع له بعض المال . ولكن كان الناس كلما رفعوا ابصارهم الى برج الكنيسة وجدوه خالياً من الجرس ثم ادعى بعد حين ان الكنيسة بحاجة الى سجادة يضعها الكاهن تحت قدميه ! .

ولكن الناس يعرفون حقاً ان الأرض مبلطة بالطابوق وعلى الطابوق يضع الكاهن قدميه حتى اليوم .

ان همسات كثيرة اخذت تدور على الالسن على شكل احتجاجات وتبرمات خفيفة و كان يسمعها و كأنه غير واع . كانوا يقولون ان في جيب الكاهن قائمة بأسماء الذين يتطفل على مائدتهم في الفطور والغذاء والعشاء ويقولون انه قد وضع تصميما لنفسه الا ينفق فلساً واحداً . . حتى الماء الساخن الذي يستحم به بمكان يجلب له من مرجل القاطرة . . و كانوا يقولون انه لم يضع حارساً او بواباً يقوم على حراسة الكنيسة ويجلس على بابها . . وانه نفسه ـ الكاهن ـ الذي يكنس الغرف . وينظف الاثاث ويزيل الغبار عن الجدران والسقوف . . والله وحده هو الذي يعلم ماحاله عندما يتساقط الغبار الكثير على رأسه ولحيته . . ! وحدث له ذات يوم ان جابهه احد الشبان المتهورين بسيل من التهم الموجعة . والكلام القارص الشديد . وقد تبقى في ذهنه الشيء الكثير مما قاله ذلك الشاب الذي لبس ثوب الشيطان . ! انه يذكره جيداً حينما وقف في وجهه امام جمع حاشد وصاح بوقاحة . . ايها « اللص » انك تتعاطى الربى وتخدع الناس .

وتسرق ثمن الجرس . والسجادة . . . !! وتعيش على موائد الفقراء اننا لسنا في حاجة الى امثالك . . لقد استنشاط الكاهن عندئذ غضباً وخرج عن صمته وهدوئه وامتدت يده الثقيلة فلطمت وجه ذلك الشاب بقوة . ومنذ ذلك اليوم لم يعثر عليه انسان بالبلدة حتى اثار اختفاؤه تقولات كثيرة . . . !

ظل ذهنه مكدوداً بتصورات كثيرة متعبة . . لقد حسد الطبيب على الأرباح الطائلة التي ينالها من مهنته حتى في حالة شفاء المريض او موته .

وحسد الصيدلي ذلك الماكر الذي يمزج الماء بالحبر ويقدمه الى الناس.. ويربح الكثير ..! اما هو فربحه ضئيل قليل لا يتحقق الا يموت المريض والسير وراء جثمانه !.. وحضور الصلاة على روحه ..

ثم راح يحسب المبلغ الذي تجمع له خلال هذا الشهر ... لم يكن كثيراً ولا مشجعاً بالشكل الذي تمناه . اما وفاة هذه الشيخة الصالحة والدة بائع الخمور فسيكون لها فضل في تعديل ميزانيته .

وصل باب الكنيسة واخرج من طيات ثوبه مفتاحاً كبيراً دسه في باب الثقب واداره بقوة بين انامله فافتتحه . ثم دخل دهليزاً مظلماً كئيباً حتى وصل الى غرفته في النهاية . كان السكون شاملا مطبقاً وقليل من ضوء مصباح الشارع ينفذ الى جوف الكنيسة من الشبابيك الكبيرة فأحس الكاهن بالضجر والسآمة والتعب أشعل مصباح الكهرباء وانحدر الضوء الشديد الباهر على وجهه ولباسه الاسود . ثم راح يخلع ملابسه عن جسده.

ان الشيخة . . لاتصبح صباحها فهي قد تموت في منتصف الليل او عند الفجر أو مع طلوع النهار .. ! وان النفس لاتدري متى يأتيها السارق هذا مايقوله الكاهن في مناسبات الموت ! .

وعلى اية حال سيأتيه بائع الخمور في الفجر فيقرع باب الكنيسة بشدة وحدة ويصيح مولولا باكياً لقد توفيت الوالدة احضر للتشييع فيرفع الكاهن عينيه وينظر في دهشة واسف في وجه الرجل الحزين ويتمتم بكلمات التوبة ويقول في اسى مصطنع ليرحمها الله رحمة واسعة لقد كانت امرأة تقية ورعة لم تتخلف يوماً عن صلاتها ولم تنقطع عن زيارة الكنيسة وجلب الشموع للعذراء ! . ولم تكدر مخلوقاً فيربت على كتف بائع الخمور ويرجوه ان ينتظر لحظة لتهيئة ملابس الجنائز ، ويرجو ان لا تكون نوبة الكرم والعطاء قد زايلت هذا المخلوق الوديع الساذج . .

لقد اجهز عليها (الكاهن) القديس قبل اوانها .. !

اما بائع الخمور ... فقد اهداه في مساء يوم دفن والدته ثمن عشر قناني من قناني النبيذ الفاخر .. !

صـــــديقان

رفع عينيه وتطلع الى الساعة الكبيرة المعلقة تحت سماء جامع مرجان . كانت العاشرة تماماً . فوقف في مكانه تعباً محتراً تسيل على جبهته ووجنتيه قطرات من العرق الملح ، وعلى وجهه امارات الضيق والكآبة .

كانت عيناه واسعتين جميلتين لونهما اخضر عميق ، وله بشرة ناعمة ملساء ، يحكم عليه من الوهلة الأولى انه زهرة يانعـــة تفتحت حديثاً للحياة . . . ولكن اية حياة !

كان الزحام على اشده ،وصفير السيارات يعلو من كل شبر في الفضاء ومواكب البشر تتزاحم وتتدافع بالمناكب كأنهم نمل كثير منتشر على الأرض . الوجوه لها عديد من الازياء والاشكال تترى باستمرار ، وامارات الجد مرتسمة في كل مكان حتى بائع الحلوى والسيكائر يدعو الناس في لهفة وحرقة .

قد وفد على العاصمة رجال من الفرات ، في أعبية صوفية خشنة وعلى رؤوسهم العقال السميك والكوفيات تتهدل على الأكتاف و الأعناق يتشاورون ويتداورون عن السلع . وفريق من أهل الشمال قد أخفوا سيقانهم فى سراويل فضفاضة وعلى بطونهم أحزمة من اللفافات ورؤوسهم مغطاة بشالات من الحرير الناعم . هم الآخرون يتذاكرون في مسائل عالمهم الصغير .

المهنة تجارة والحياة كسب وربح والذكاء والمهارة والخبرة في مجموعها تتكثف و تتجسد و تتحول الى مادة صماء من الورق قد أحسنوا حشوها في جيوبهم .

البنوك والشركات والمتاجر و الخانات وعمليات الدفع والقبض وحركات الأسعار تقف وراء الجميع كقوة هرقلية مستبدة لا يجرأ على منازلتها انسان قد طغى طغيانها الفظيع ، تحرك هذا الكون الصغير و تلعب بمقدراته لعباً بهلوانياً ، فيتأثر من جرائه ملايين من البشر قد اتخذوا مواضعهم فى القصور والبيوت والأكواخ والصرائف والكهوف ، بعضهم يصيب غنى فاحشاً و بعضهم يرضى بالنذر اليسير وهناك من يصل بين اليد والفم ولا يطمع في المزيد .

وعلى الارائك والعروش يجلس الرأسماليون والمضاربون والتجار والملاك بيدهم أعنة الفرس المطواع التي لا تضع قدماً إلا ورائها ربح محقق .

قبل أقل من ربع ساعة تحرك حميد هذا الفتى الذي تركناه واقفاً

ومشى في شارع السموأل ، شاقاً طريقاً صعباً بين جموع الآدميين . كان يسائل نفسه « هل هؤلاء هم التجار ، هؤلاء الرجال المحتشدون في المقاهي يطقطقون سبحهم ويراجعون أوراقهم ولا يبتسمون في وجه أحد ، حتى التحية عندهم تبذير وقت . أنفاسهم الحارة تعلو في الجو ثم تعيدها إليهم المراوح الكهربائية في السقف فلا يحسون للهواء طعماً فيزفرون ويتأففون ويغيرون وضع سيقانهم .لهم علم راسخ في المضاربات والمناورات والتلصص مع أنواع العملات وبلاد الله كلها مع مواردها وانتاجها . كل هذا العلم الغزير يبحث عن الربح الشخصي ويسعى إليه جاهداً . أما المجتمع كمجموعة من أعضاء أسرة يتبادلون بينهم العطف والمودة والتعاون فأمر لم يعد له بخواطرهم خيال ، وهذا ما أدركه حميد .

وقف بين يدي أحد التجار وانتظر وقتاً ليس بالقليل حتى تمكن أن يلقي عليه سؤالا خافتاً فيه من المذلة ما يؤلم ويشين . سؤالا يعرفه كل عاطل. فرد عليه التاجر وعلى شفتيه ابتسامة صفراء معتذرة ، انه بحاجة الى كاتب يحسن الضرب على الآلة الكاتبة ويستطيع القيام بالترجمة ومسك الدفاتر وله خبرة في السوق والتجارة .

في لحظات قصار استعرض الفتى معلوماته التي حشدها في مخه في المدرسة . فبدت أمامه معادلات الكيمياء كأنها طلاسم من عالم غير عالم الأرض . أين الحوامض والقواعد والأملاح . وأين ذلك الأستاذ النبيه الذي يؤكد أهميتها في الصناعة والمدنية الحاضرة . ونظريات الحركة والقوة

والكثافة ، والرياضيات والجبر والمثلثات ، ليس بين كل هذه العلوم شيء يفيد هذا الرجل الصارم المتكرش الذي يحمي ظهره بكتلة من الفولاذ مكدسة فيها الدنانير .

قال الشاب بتواضع (انني خريج الدراسة الاعدادية لهذا العام ولا أتذكر أنني درست شيئاً من هذا الذي تطلبه مني) لم يجب التاجر ، وفي هذه اللحظة رن جرس التلفون ودار حديث هام خطير عن صفقة توشك أن تفلت من قبضة تاجرنا وتقع في قبضة تاجر آخر منافس . فقامت الدنيا وقعدت ونسجت خيوط المؤامرات ودبرت المناورات وبذلت الأعطيات حتى بدت الأمور عند تاجرنا أحسن حالا وأقوى أملا . انتظر حميد بضع دقائق ، يأمل أن تنتهي المكالمة فيستطيع أن يقنعه بضرورة عمل شيء ما في سبيله . وان جهله بمطاليب التاجر ليس هو مسؤولا عنه انما هي مناهج مدرسية رسمية موضوعة بهذا الشكل . فتحرج موقفه وشعر بالخذلان ، وهو ينقل بصره بين سماعة التلفون الملصقة على وجه سمين والأرض الواقف فوقها : فآثر أن ينسحب حتى انه لم يدر كيف تمت عملية الانسحاب كان الارتباك والخجل مع الألم العميق كل ما احتوته نفسه في تلك الساعة .

أراد أن يلوم نفسه ويتهمها بالعجز والضعف . كان يجب أن يظل واقفاً ويحدق بصرامة في وجه التاجر ويلقي عليه دفاعاً مفحماً مقنعاً حتى يصل الى قرار . أما أن يتسلل هكذا وينهزم فهي بداية فاشلة لحياته العملية المقبلة .

كثيرون وصفوه ببرودة الطبع وقلة الحيلة والصراحة حتى مع الخصوم و كثيرون نصحوه أن يدخل المعركه خبيثًا ذلقاً مراوغاً واسع الحيلة يلبس لـكل حالة لبوسها حتى يضع الكتف بين فكيه .

وقف في مكانه مطرقاً مفكراً حتى هذه الفرصة الضئيلة افلتت من يده خرج منذ ساعة واحدة بعد أن دار بينه وبين أمه حديث يشوبه بريق من الأمل ، وتوقع الاثنان أن تنفرج الكربة هذا اليوم فيفتح الله عليهما رزقاً كان حبيساً .

تهندم قدر ما أسعفه الظرف ، المهم أن يكون المرء في هذه المناسبات حليق الوجه لماع الحذاء وخيط الـكوي في السروال ظاهر وعلى الكتفين سترة لها ياقة نظيفة ، فكانت له هذه المظاهر البسيطة .

رددت امه عند الباب سيلا من الأدعية الحارة واستنجدت بالقديسين و كشفت صدرها الى السماء وابتهلت كثيراً حتى غدا وجهها كراهية مسكينة . فرمقها حميد بنظرات غير مريحة ولـكنه لم ينطق بشيء .

والآن وقد فشل مسعاه فما عساه ان يفعل ؟ فكر ان يعود القهقرى الى المنزل وينشر النبأ بين يدي امه فيزيد في حزنها وحزنه . ولكن هناك ما يمنعه من العودة انه لا يستطيع ان يدخل غرفته في هذه الساعة من النهار وقد احتضنتها الشمس من جانب الشرق ، وارسلت في جوفها السنة من لهيب جهنم . في هذا الجو الخانق وتلك الغرفة التعسة الملقاة في الطابق الثاني من ذلك المنزل الفسيح المهدم ، الذي كان في عزه ديواناً لأحد

الأسياد الكبار ثم دالت دولته فاستحال اصطبلا للآدميين يضجون في فنائه ويصخبون مع اصوات البريمزات المدوية كأنها معمل لصهر الحديد ، الخرق القذرة معلقة فوق الرؤوس، والأطفال العراة يزحفون على الأرض كصغار القطط .

شيء واحد علق بذهنه وحبب اليه كثيراً من الآلام ، هناك في المنزل صبية جميلة عذبة الصوت صبوحة الوجه ، لها قوام رائع فاتن ونظرات محببة فيها سذاجة الصبا وخبث العذراء التي تمارس الهوى وتستعد له . لها كتاب تقرأ فيه و اكبر الظن انها قصة غرام ، فلا شيء يستهويها الا الحبيب الجميل الذي يحتمل التضحية ويحرقه الشوق ويذيبه الوجد العارم . هذا ما تقرأه وهي جالسة على كرسيها في الطارمة غارقة في الأحلام ، ومن تحتها كل مظاهر البؤس والفاقة . حتى البالوعة تبعث (عطرها) الكريه في الذين يسكنون فوق السطوح . والأم قد جف ثديها وفشلت كل محاولاتها لاسكات طفلها الباكي .

كثيراً ما ترفع الكتاب عن عينيها وتبعث بهما نظرات فيها ارتخاء واستجابة كأنها تقول بهما (لم لا نكون حبيبين ؟) ليس بينهما سـلام ولا حديث انما هي نظرات الشوق تتراشق في الفضاء الحار فتلهب المشاعر وتثير الحواس .

مشى الى دار الاستعلامات ودخلها واتجه تواً نحو الحنفية ، فأصاب منها بارداً منعشاً ثم اتخذ له مقعداً تحت احدى المراوح فتبرد بعد حين الحر

الشديد الذي كان يحسه ، تطلع الى الاجسام الكثيرة الملقاة فوق المقاعد تتزاحم على الصحف لتقرأها ولا تنالها الا بعد انتظار طويل ، ولا يكون نوالها الا بشيء كالقنص والاصطياد .

هؤلاء شباب مثله حطوا رحالهم في هذا المكان الغريب ، ليقرأوا الصحف وليقتلوا الوقت وليتخلصوا من اجرة المقهى ليس ورائهم عمل ويبدو على الكثير منهم آيات العوز والفقر .

للمكان جمال وفخامة . الجدران نظيفة صقيلة والصور لطيفة جميلة والهواء بارد منعش ، ليس لأحد من هؤلاء الجالسين بيت له مثل هذا الأثاث ، لاحظ حميد احد الجالسين قد لبس حذائه بلا جورب وعلى قدمه بقع سوداء من التراب والعرق وليس على جسمه الا سروال ممزق تحت قميص قذر . وقد انكب على صحيفة معينة يقرأ في صفحتها الثالثة ، وكأنه يلتهم السطور كما يلتهم الجائع طعامه ، ما الخبر ؟

ما هذا الذي يدفع هؤلاء الشباب الى مطالعة الصحف ، ليس جميعها بل بعضها ، هذا البعض الذي يقود حركة الفكر في البلد ، بحركة موفقة انتقل حميد الى جوار ذلك الجالس ذى السروال الممزق والقميص القذر قد ترك حذائه على الارض ومد فوقه قدميه المبقعتين بالعرق والطين . راح يقلب عينيه في الصحيفة التي يقرأها ، فاحس به في الحال وقدر شعوره وسمح له برفق ان يطالع معه ، كأنه يقول (العلم مباح واريدك ان تتعلم) التفت اليه وابتسم ابتسامة رقيقة مؤدبة كأنهما صديقان وان لم

يتعارفا بعد . ما هذه الشكاوى ؟ وما هذا البؤس .

قرى كاملة تستقي مياه شربها من الجداول الملوثة بالقاذورات ومع ذلك تدعو الاذاعة الناس الى اجتناب المرض والأخذ باسباب الوقاية ، ومستوصفات كثيرة خالية من الطبيب ومن الدواء والطرقات وعرة تملأها الحفر والاوحال والاتربة والمدارس تشكو نقصاً في الملاك ، في كل مكان شكوى من غلاء الاسعار ومن اشتداد وطأة البطالة ومع ذلك تسمع من يحاضر عن اصول طبخ الكباب المشوي وصناعة المربيات والحلويات . واخبار المتسكعين والهائمين والمشردين بلا مأوى ثم اخبار الجرائم الفظيعة المقززة ، السطو والقتل والتوقيفات والمحاكمات والسجون ويمتد طويلا هذا السيل من الشجون حتى تأتي اخبار الحفلات والاعراس والمآدب وليالي السمر والاستقبالات والتوديعات والاصطيافات ومباريات الجمال واخبار المصائف واعلانات ملاهي عبدالله والامباسي وهافانا .

قرأ كثيراً حتى احس بالدوار ، واسترق النظر احياناً الى الذي يجلس جواره فوجد وجهه هادئاً رزيناً كأنه شيخ جليل عركته التجارب ، فعجب له حميد وفكر في نفسه ، ان هذا الحذاء الذي يلبسه صاحبه كاف ان يجعلني اضحوكة في نظر نفسي والناس وان يمنعني من الظهور في الشوارع ومع ذلك فان صاحبه يبدو مرحاً لطيفاً . واحس بعظم حاجته الى مثل هدوء هذا الجار ورزانته وجده .

البطالة ومتاعب الحياة الصغيرة قد احالته الى مهتاج موتور غاضب سرعان ما سيتغلب عليه اليأس ويصرعه ولا يدخل معركة الا تراءى له الفشل ، ومع ذلك فهو يبدو انظف من جاره واحسن منه مظهراً . تململ في مكانه وتمنى لو ان هذا الجار يترك الجريدة ويخرج فيتبعه ويتعرف عليه ، وحدث ان التفت هذا اليه وفحصه جيداً بعينيه الهادئتين فوجده ضجراً تتأفف ويتلفت حوله ولا يقرأ . فسأله في أدب (انكلا تقرأ ؟) فانتبه حميد الى سؤاله واحس بفرح مفاجيء .

قرأت ما فيه الكفاية ـ اجاب حميد ـ وانت الم تمل القراءة الطويلة؟

ترك الجار الجريدة تسقط من بين يديه وابتسم في مرح ابتسامة طفل معافى وتهيأ لنقاش مؤدب لطيف .

انني اقرأ كثيراً وهذه الصحف التي اطالعها هي جزء يسير من مطالعاتي واشار الى الصحف اشارة عابرة بيده السمراء النحيلة، ثم استطرد متسائلا:

« اليس من العجب ان نطالع في هذا المكان الغريب ؟ »

فاجاب حميد في بداهة :

ـ هذا مكان لائق ونظيف وملائم للمطالعة .

ـ اعرف هذا ، ولكن لم لا نطالع صحفاً في بيوتنا ونشتريها من جيوبنا .

اجاب حميد في سخرية : في بيوتنا ؟ تذكر اي بيت يسكن فيه . ليتك شهدت بيتنا . . . ثم الصحف من جيوبنا نشتريها ، وابتسم

حميد ابتسامة عريضة حاول ان يجعل منها جوابًا كافيًا لما يدور فى رأسه قال الجار بسرعة (هل تخرج ؟)

وفى الحال سحب الأثنان من تحتيهما الكرسيين الحديديين واخرجا ساقيهما من تحت المنضدة . واستغرق الجار في هذه العملية ثانيتين اضافيتين ريثما يتيسر له خلالهما ان ينقل حذاءه المرطب بالعرق وقد فعل هذا بهدوء اعتيادي تمامًا مثل الرجل الأنيق الذي يضع على رأسه قبعته .

كانا في الطريق ، الجار يجر حذاءه جرا ويهز كتفيه هزا قويا ويبالغ ان يجعل قامته منتصبة حتى على اولئك المتأنقين الذين يمرون به ، اما حميد فرغم اناقته النسبية كان يحس انه اقل شأنًا من هذا الجبار الفقير الذي تبدو عليه الحكمة والوقار ولا يستطيع من يراه الا ان يحترمه ويتغافل عن مظهره الزري قال يواصل حديثه . كان يجب ايها الأخ ان نطالع الصحف والكتب في بيوتنا نحن ، في بيتك وفي بيتي ،لا نقرأها في مكان غريب عنا ، وكان يجب ان نشتريها وندفع اثمانها كي نتعاون مع الناس الذين يخرجونها لنا . . لا هكذا استجداء وتفضلا .

كان صوته عميقًا قوي النبرات ممتلئًا بالصدق والثقة فيه انفعال طفيف يزيده حلاوة في اذن صاحبه .

استدار الى حميد وسأله في غير تمهيد ـ هل تشتغل ؟ اعني هل عندك عمل ؟ كان حميد الى هذا اليوم يأبى ان يذكر امام انسان انه عاطل وطالما ادعى انه موظف في شركة كذا ودائرة كذا حتى سكان المنزل لا يدرون

شيئاً عن بطالته فقد تولت امه خلق وظائف وهمية له . اما في هذه اللحظة وامام رجل صادق وقور مثل هذا الصديق فالادعاء محال . المشاركة الوجدانية كانت تصل بينهما بخيوط دقيقة .

لا عمل لي ايها الأخ ـ اجاب بلا تحرج ـ انني عاطل منذ زمن . . . منذ تخرجت من الثانوية قبل عشرة اشهر . اجاب الصديق :

ـ ليس هذا امر مستغرب انني عاطل كذلك منذ سنتين ولا أمل لي في وظيفة .

صاح حميد مندهشاً ـ لا أمل لك في الوظيفة كيف هذا ؟

مط الصديق شفتيه مدركاً انه امام شاب لا يفهم كثيراً . ولذا آثر ان يؤجل هذا الحديث الى لقاء آخر .

كان مسيرهما في شارع غازي وقد قطعا خلال هذه الفترة مسافة كبيرة ولم يبد على الصديق اي تغير في مشيته ، الرأس مرفوعة والاكتاف تهتز هزة عسكرية والحذاء ينسحب على الأرض مثل خف النوم قد امتص مقداراً كبيراً من العرق ثم فاض فتشربت به قدماه .

سكت الأثنان بضع دقائق ثم قال حميد :

ـ اننا لم نتعارف بعد . فاستدار صديقه وبدا على وجهه الأسف وقال في حرارة بالغة :

ـ اسمي نوري واسكن في باب الشيخ وقد ذكرت لك انني بلا عمل ونطق بالعبارة الأخيرة وعلى شفتيه ابتسامة مازحة .

وذكر حميد اسمه وانه يسكن في رأس القرية واردف انه بلا عمل كذلك . قال نوري :

ـ الحقيقة انني لا اعلق اهمية على التعارف . كل انسان من طبقتي ونوعيتي يعرفني واعرفه واستطيع التفاهم معه ونحن صديقان حتماً . . . . الا ترى هذا صحيحاً ؟

فهز حميد رأسه . وقال صحيح . ولكن التعارف يهيء الفرصة لصداقة اقوى .

ـ التعارف موجود في اعماقنا وفي نفوسنا واذهاننا لا يحتاج الى اسماء ومحلات سكنى ووظائف . . . وتصور لو اننا لم نتعارف بهذه الطريقة التقليدية . ماذا يحدث ؟ الا يحيي احدنا الآخر في الطريق ؟ الم نلتقي مرة اخرى ؟

احتج حميد وقال مدافعاً عن وجهة نظره :

ـ قد ينسى احدنا الآخر وقد نضطر الى المراسلة في يوم ما وقد اسأل عنك أحداً كيف يتيسر لي العثور عليك ؟

هذا صحيح ولكن لا اريد ان نعلق عليه اهمية بقدر اهمية التفاهم الحقيقي الذي يمكن ان يتم بدون تعارف تقليدي .

ـ هل تأتي الى دار الاستعلامات للمطالعة ؟ سأل نوري

لم يجب حميد كان يفكر في فتاة المنزل . وبعد لحظة اجاب في حذر :

ـ احاول ان اكون هناك ... وانت هل ستأتي ؟

ـ انا هناك في كل صباح لا يمكنني الاستغناء عن الصحف ... تصور في الليل افكر فيها واسأل نفسي ما افتتاحية الغد ؟ عن اي موضوع ستكون ؟

انني مهتم جداً واريد ان اعرف كل شيء . . انك تعلم اننا فقراء معوزين ولكن يجب ان نتسلح بالعلم وضم قبضته بقوة . ان الجهلاء سيبقون وراءنا ونحن نتقدم . سأل في حرارة :

ـ هل انت مثلي ايها الصديق ؟ هل لك رغبة في التعلم ؟

قال حميد في أسف وقد تذكر ما لقيه في الصباح مع التاجر

ـ اتعلم ! مللت كل شيء المدرسة لم تزودني باي علم يفيدني . وحكى له حكاية الصباح باختصار . وختمها بهذه العبارة انك ترى ان جهودي في المدرسة كلها عبث

هذه ناحية ثانية لمس فيها نوري جهل صديقه . فأكد له في عزم قائلا انا لا اقصد المعلومات الهزيلة في المدارس العلم شيء اثمن من معلومات جامدة يجب ان نتعلم من نحن والى اين سائرون ... ان هذا التاجر الذي احزنك في الصباح وردك خائباً هو الذي يملي ارادته عليك وهو الذي يريد ان يضعك كما يشاء ، هو يضع المقاييس . ان نحن تعلمنا جيداً ادركنا تفاهة هذا التاجر وسواه من الناس وادركنا ان العامل الذي يضع مجاري المياه القذرة في اعماق الأرض هو خير منه .

شعر حميد بالارتباك ، ان طلاقة صديقه وقوة حجته وسموه في سهولة

فوق تفـكيره جعله يستضعف نفسه ويزيد من احترامه . وكانما أحس نوري بشعور صاحبه فاردف في مودة واحترام . اننا نتعاون على حل مشاكلنا ليس الا وقد نلتقي في فترات اخرى .

كان حميد قد بلغ النقطة التي يجب ان يفترق عندها عن صديقه فوقف ببطء وقال اسفاً ـ هنا نفترق وغداً سأكون في دار الاستعلامات .

كانت الساعة قد جاوزت الثانية عشرة ، فكر حميد ان الشمس قد زايلت غرفته . كان يشعر بالجوع والعطش .

ان امه المسكينة ستظن ان وليدها العزيز المجتهد الذي تخرج من الثانوية قد وجد عملا تقتات به .

مشى نحو المنزل فلما دخل وجد الفتاة اللعوب المغناج ذات الـكتاب تواصل مطالعاتها وقد استبد بها شوق فاضح . رفعت عينيها عن الكتاب ونظرته نظرة مولهة صمد لها بكل قوته ، قال في نفسه .

ـ انك ماجنة عابثة ولكنني سأصلحك كما ان صديق اليوم سيعمل على اصلاحي . يجب ان نكون جميعاً صالحين .

طبيب بالمجـــان

تقع عيون غلمان محلتنا وهم يلعبون ويمرحون على شاب كسيح هزيل ضامر يقعد على عتبة احد المنازل من الفجر حتى ساعة متأخرة من الليل ومن فرط ما ألفوه واعتادوه حتى لم يعد يثيرهم منظره واعتبروه كشيء ثابت طبيعي كائن في هذا المكان من الطريق مثل اعمدة الكهرباء وصندوق البريد .

كنت اعرفه واشفق عليه ليس لأنه كسيحاً فقيراً معدماً فحسب ، بل لأنه ضحية وهم كبير يأبى الا يحسب وهمه حقيقة واقعة ويصر اصحابه على تأكيد وهمه وتحبيبه له . وأمله في الدنيا هو ان يشفى يوماً من عاهته ويجد عملا سهلا ويتزوج باحدى الفتيات الجميلات اللاتي يمررن به في كل ساعة هازئات عابثات . فتلقي كل منهن نظرة سريعة خاطفة عليه فيحسها كأنها تيار كهربائي يخترق صدره فيتململ ويتأوه ولا يدري احد

هل هو يتأوه حزنًا و كمداً و يأساً أم يتأوه تظرفاً وتغزلا واستخفافاً .

و كان يؤلمه كثيراً ان يجد النساء يمررن به غير محجبات قد اطلقن نظراتهن عليه و كشفن عن اسنانهن وثيابهن دون تحفظ وتحرج عكس ما يفعلن مع الرجال فتأخذه موجة من الهم فيتساءل مع نفسه ما السبب ؟ فيجد الجواب حاضراً . أن انساناً كسيحاً مهاناً ملقى على عتبة المنزل كاوساخ المزبلة لا شفاعة له فيصرف ساعات طويلة في حزن ويأس وتفكير حتى تمر به «هيفاء» الشابة الجميلة السافرة ابنة مدير المدرسة تبتسم في وجهه وتحييه تحية حارة وتسأله عن حاله فيتهلل وجهه بابتسامة عريضة ويتنفس عميقاً وعندما يقع هذا المشهد يلتفت اليه الغلمان ضاحكين متندرين فلا يلتفت اليهم احد ولا يعيرهم اذناً ولا عيناً .

كان من عادتي ان أحييه في الصباح عندما اخرج الى عملي واحييه في المساء عندما اعود الى البيت فيسر بي غاية السرور . ويحزنه كثيراً ان يجد بعض شباب المحلة لا يسلمون عليه ولا يحيونه بتحية رغم انه يستقبلهم بنظراته من اقصى الطريق ويلاحقهم باصرار بعيونه ويحدق طويلا في وجوههم ويأمل ان تنفتح شفاههم بتحية ولكنه يخيب في نهاية الأمر فيهمهم بضجر ويحرك ساقه تلافياً للفشل .

* * *

كان المنزل الذي يقعد عند عتبته هو منزل اخيه محمود ، ومحمود هذا عامل في احد المعامل يتقاضى راتباً ضئيلا لا يكاد يكفيه ويكفي زوجته

واولاده الثلاثة وفوق ذلك فقد تحمل ايواء اخيه احمد ، فيشعر أحمد من جانبه انه عالة ثقيلة مبهظة على مائدة اخيه ولكن ما عساه ان يصنع انه كسيح معتل الجسم لا يقوى على السير الا بعض خطوات عرجاء تكده كداً.

أنه يعلم ان أخاه فقير يعاني مرارة العيش ويشكى كثيراً من مرارة الأحوال السيئة المرهقة التي تحيط به فيزيد هذا في عذاب احمد واستيائه من نفسه واشمئزازه من حياته فلا يدري ماذا يفعل ، يتمنى ان لا تكون له معدة ولا يشعر بحاجة الى الغذاء لكيلا يشارك الاطفال غذاءهم ويثقل على الزوجة ويثير شكاوى اخيه ولكن حالما ينتصف النهار يشعر كأن ناقوساً ضخماً يدق في معدته وامعائه يطلب الغذاء ويلح في الطلب . فيتململ ويتحسر ويرنو بعينيه الى داخل المنزل يتسمع قرقعة الصحون ايذاناً بالغذاء فتشعر به زوجة اخيه فتتعمد ان تطيل انتظاره وتقتل شهيته حتى تشبع اولادها وتشبع نفسها فتقدم له ماتبقى من الفضلات والنفايات مع رغيف يابس سميك من الخبز فيقبل على غذائه يأكله بخفة وسرعة محاولا ان يخفيه عن عيون الغلمان والاصحاب لئلا يشمتوا به ويشعروا بمكانته الوضيعة في المنزل فينتهي سريعاً ويبعد الصحن من أمامه ويتصنع الهدوء والراحة كأنه قد التهم كبشاً سميناً .

كنت اخرج من المنزل احياناً بعد العشاء فأمر باحمد واحييه بتحية ثالثة فيسر كثيراً ويحرك نفسه على العتبة دلالة الترحاب والأحترام فأجاذبه حديثاً ظريفاً ممتعاً حول حبيبته «هيفاء» ابنة مدير المدرسة واسأله

عما اذا كانت قد حيته هذا اليوم فيجيبني بالتأكيد .

ـ أجل حيتني أجمل تحية وابتسمت في وجهي وسألتني عن صحتي كنت أعرف ما يجول بخاطره ولذا كان يتفق معي في كل ما أقول فتبتهج نفسه . فأسأله ما يمنعه ألا يتزوج « هيفاء » طالما هي تحبه وتحترمه فيتطلع في وجهي محاولا أن يفرق بين جدي وهزلي فيجدني جاداً غير موارب فيتشجع ويقول أتمنى أن أتزوجها ولكن لا عمل لي ولا مال وقدمي كسيحتين مفلوجتين فأقول له مواسياً لا بأس عليك يا أحمد سأتوسط لك في ايجاد عمل كحارس في المعمل وتستطيع أن تسترد ارثك من أخيك محمود . عشرون ديناراً لا بأس بها قد تفيدك في الزواج وفوق هذا فان « هيفاء » ستتخرج هذا العام من المدرسة وستكون معلمة لها راتب في نهاية الشهر فتستطيعان أن تعيشا معاً برفاهية وسعادة . فيهز أحمد رأسه ويقول ببساطة .

طالما الحب قائم فكل العقبات سهلة هينة . وأفاجئه بهذا السؤال

ـ ألا تحبك هيفاء ؟

ـ فيجيب بسرعة وحدة وصراحة

ـ بكل تأكيد . بيننا غرام ملتهب منذ أعوام لولاها لما سكنت في هذا المنزل ولا بقيت على قيد الحياة انها حياتي وهدايتي ومنار طريقي وهي تحبني وتخلص لي ولا تستطيع أن تمر الا من هذا الطريق رغم ان الطرق عديدة للوصول الى منزلها . أليس هذا دليلا على حبها لي واهتمامها بي ؟

مسكين أحمد يصدق كل شيء ويشك في كل شيء . يصدق أموراً كثيرة ويشك في أمور كثيرة . ان هيفاء تحبه وتخلص له وتتمنى الزواج منه وهو يحبها ويهيم في هواها ويتمنى لمسها ومحادثتها وينتظر أوبتها إلى المنزل بقلب واجف وعين متلهفة . واذا ما طلعت عليه من أقصى الطريق تهلل وجهه بابتسامة عريضة ، وخفق قلبه بشدة وركزت عيناه على كل موضع من مواضع وجهها ولباسها وجسمها . كم كانت تبدو جميلة فتانة في عين الشاب الكسيح حتى ليخيل اليه أنه يرتفع الى السماء ويحيا لحظات خاطفة في فردوس السعادة . واذا ما القت عليه تحيتها وصل في حبه الى ذرى الخيال فيتمنى لو يمزق صدره ويحشر فيه هذا الجسد الجميل المنسق ويحتفظ به الى الأبد .

ولكنها تمر وتبتعد ويختفي خيالها وظلها . نعم ان له لدى أخيه عشرون ديناراً ورثها عن أمه في السنة الماضية فيستطيع أن يستعيدها منه إذا جد الجد وعزم على أمر هام . ويستطيع كذلك أن يجد لنفسه عملا سهلا هيناً كبواب أو حارس أو صاحب دكان صغير . وان هيفاء ستتخرج هذا العام وتكون معلمة . أن حياتها الزوجية ممكنة من الناحية المادية ولا غبار عليها . وفي ساعات اخرى تغلب عليه الكآبة ويشتد به الحنين وتطبق عليه الآلام فيأخذ بيده معولا ثقيلا ويهدم كل هذه الآمال الخرقاء حتى يكاد يصرخ من فرط اليأس والتحسر فيناجي نفسه .

انا كسيح مريض وزوجة اخي تطعمني من بقايا طعام اولادها

وتمعن في اذلالي وتعذيبي ونساء الحي يسخرن مني ويبرزن صدورهن في وجهي بلا تحفظ ولا تحرج كأني طفل مشرد حقير وان العشرين ديناراً سيأخذها مني جزاء ما اطعمني وكساني وآواني في منزله . هيفاء تجاملني فقط وتعطف علي وان مسألة الزواج شيء مستبعد ومستحيل كيف يقبل أخوها وأبوها أن يتزوجها كسيح مريض مشوه وحقير انني أحلم وأسلي نفسي بالأكاذيب .

* * *

حدث يوماً ان مررت بمنزل أحمد فلم أجده عند العتبة فاستغربت كثيراً فسألت عنه أحد الغلمان فقال ان أحمد مريض وقد ذهب في هذا المساء الى الطبيب المجاني . فحزنت كثيراً ودهشت ألا تكفي همومه وآلامه حتى يمرض كذلك .

وفي اليوم التالي وجدته في مكانه فأقبلت عليه أسأله عن علته فأذهلني شحوب وجهه وتهافت جسمه وضعف نظراته فقال لي في مسكنة ويأس .

ـ لقد مرضت منذ بضعة ايام ولا ادري ما اصابني

فسألته عن الطبيب الذي يعالجه . فعلمت انه الدكتور سعدي الذي يعالج مرضاه بالمجان نهار الجمعة

فسألته هل اهتم الدكتور بفحصك وعلاجك ؟

فتأوه وقال في ضيق :

منحني لحظة واحدة من وقته ، كان عنده جمهور كبير من المرضى الفقراء

استطعت ان اقول له اربع كلمات فقط(دكتور الم في المعدة)فالتقط قلمه وكتب شيئاً على ورقة صغيرة ثم وضع في رأسها اسمي . اردت ان اقول شيئاً آخر لازيد علمه فلم يتيسر لي وجدت ورائي مريضاً آخر قد دخل ومريضاً ثالثاً قد دس رأسه في الباب فتراجعت مرغماً وانا امسك بالورقة لا ادري هل اكتشف الدكتور مرضي بهذه السرعة حقيقة ام خمنه تخميناً .

صمت لحظة طويلة فسألته الا تجد نفسك احسن يا احمد ؟

فأمعن في النظر فدهشت لنظراته المتعبة اليائسة وتحوله السريع من شاب ظريف فكه ساذج الى رجل حازم مفكر جاد قال بهدوء و ناة :

ـ انني ذاهب ، الموت خير لي يا عزيزي

فحاولت ان ارفه عنه بكل قوتي لازيل عن نفسه هذا الشعور الرهيب فقلت له بعطف ورقة :

ـ وهيفاء يا احمد هل نسيتها ؟ فدمعت عيناه وجعل رأسه يسقط الى صدره وسمعته يتمتم بصوت منقطع خافت :

ـ هيفاء ! لقد خسرتها يا عزيزي خسرتها الى الأبد انها مخطوبة الى ابن عمها !

ـ كيف علمت ذلك يا احمد ؟

فرفع رأسه وحدق في كانت عيناه مخضلتين بالدمع ووجهه شاحب كوجوه الموتى فرثيت لحاله واشفقت عليه غاية الاشفاق

قال : وجدتها هذا الصباح مع خطيبها !

ـ ما شكل خطيبها ؟

ـ شكله ؟ خير الف مرة من شكلي ، شاب جميل رشيق يمشي بقدمين قويتين و يكتسي بحلة انيقة ثمينة ، قد تأبطها و تأبطته . فلا سلام ولا تحية ولا حتى نظرة او ابتسامة . وجدتها تهمس في اذن خطيبها . فالتفت نحوي ورمقني بنظرة مشفقة ساخرة .

ساد بيننا صمت عميق ، فتطلعت الى وجهه فوجدت راية الموت الرهيبة ترفرف على وجنتيه الناتئتين فتركته و انصرفت .

وفي اليوم التالي لم اجد احمد عند العتبة فسألت عنه فقيل لي انه مريض جداً وقد اوى الى فراشه . فاشتقت ان اره . اتيت اليه في المساء وجلست الى جانبه على السرير الخشن سألته عن حاله ، فكان يجيب بجهد بالغ : همست في اذنه مداعباً تشجع يا احمد قليلا ان مكانتك في قلب هيفاء لم يمسسها احد ... انت محبوبها الأول ، اجاب في تقطع :

ـ لا يا عزيزي لن تعد لي هيفاء بعد اليوم ... انك لا تدري اواه اواه ... لا تدري ، و كاد يغمى عليه من فرط التأثر ، صحت به :

ـ ما الذي حدث اي شيء هذا لا ادريه ؟

ـ الليلة ياعزيزي الليلة ... تتزوج هيفاء وتذهب مني الى الأبد يا لتعاستي ويا لأحزاني وصار يبكي كالأطفال ، واسيته وخففت عنه جهد امكاني .

وقضيت معه فترة طويلة من المساء ، حتى وجدته احسن حالا فتركته وانصرفت ، ما كدت اودعه واصل الى عتبة المنزل حتى سمعت صراخاً وولولة ، امتزجت بانغام الموسيقى تعزف من مكان قريب ، مع تهاليل النساء ، مات احمد وتزوجت هيفاء ٠

مرآة النـــاس

في نفسي ينبوع دافق من المرارة فكل ما يبدو امامى اراه مسربلا بالكآبة ملطخاً بالاوحال حتى المسرات التافهة الباهتة التي يندفع اليها الناس . لقد امضيت مساء هذا اليوم في مقهى علوان واستعرضت الصورة نفسها التي ترتسم في كل ليلة . حقاً اننا نعيش في عالم حزين مضجر قد ملأته روح متمردة طاغية ذات قسوة وفتك تدور على الناس دوران الرحى الثقيلة المزعجة . لقد اقبل الشحاذ عيسى هذا الذي لا يكاد يجد لقمة يلهي بها اسنانه فيثقل امعاءه بالخمر ويحشد رأسه بالاوهام والخيالات . اقبل علي بيده المرتعشة وقدميه الحافيتين ووجهه المغبر الحزين يطلب مني شيئاً من النقود . لقد كانت حاجته شديدة الى الخمر فاستطاع بسذاجته وجهله ان يطبع اروع تعبير على وجهه المتقلص البارد تعبير رجل ساقط متدهور منحل فقد كل امل وكل عزة و كل حائل يحول بينه

وبين جيوب الناس . لم اعطه شيئاً بل صرفته عني بفظاظـة ليست من طباعي ولا كنت يوماً اريدها لأحد . فلم يكترث ولم يحس اني اطرده وأزجره بل جمد في مكانه وقال في برودة هادئة :

ـ اذن اعطني سيجارة . فأشفقت عليه وناولته ما اراد فاشعل السجارة ولوى عنقه وما كاد يبتعد عني بضع خطوات حتى مد يده المرتعشة الى جيب سترته واخرج قنينة حمراء راح يعب منها . ثم عمد الى سيجارته وحشرهـا حشراً قوياً بين شفتيه كأنه يريد ان ينفذ كل دخانها الى صدره .

وما ان اشرفت الساعة على العاشرة حتى طلع علينا شاب حسن الصورة قذر الملبس عليه اثواب لاتنبيء الا عن فاقة ، يمشي مشية متعبة مكدودة كأنه اقبل من سفر بعيد . تقدم الى ركن منعزل من المقهى وتنـاول مصطبة كبيرة اسندهـا الى الجدار ثم راح يخلع ثيابه الرثة الكثيرة . لقد وضع فوق بدنه كل معـدات الشتاء ... القمصان والبلوزات والزخمات . مختلفة الالوان جمعها كلها في كومة كبيرة وضعها في رأس المصطبة ليتخذها وسادة وليأمن عليها من يد عابثـة . ثم احضر من مكان آخر قطعتين من الاغطية الصوفية نشرهما فوق المصطبة وتمـدد تحتهـا يريد ان ينام . انه يمضي ليلته في هذا المـكان المزعج القذر المـليء برائحة الدخان ونفايات السجائر .

كان الراديو يقوم بوظيفته . قد اطلق كل صفاراته وحناجره في مساء

الاربعاء . اغان كثيرة لايعرف من وضعها لاول مرة ومن اطلق عقالها في هـذا الوجود ولا المناسبة التي وضعت فيها . حقاًاننا نعيش في عصر سحيق من التاريخ عصر مضى وانتهى وفقد كل مبررات وجوده ولم تعد له اي وشيجة مع هذا العصر المتحرك .

وبعد قليل حضر الى المقهى اربعة رجال . احدهم «افندي» والآخر چراوية » واثنان بين بين . تقدموا الى ركن آخر من المقهى وحطوا رحالهم امام مائدة مستديرة ملساء . فاقبل رب المقهى ، هذا الرجل الذي يبخل عليه الوضيع ان يصفه بالوضاعة ، هـذا الذي تسمنه محن المجتمع وتغذيه بالعسل والحليب . احضر لهم (دستة) من اوراق اللعب القاهـا بين ايديهم كما يلقي الاب الحنون اللعب لاولاده فابتسموا في وجهه وشكروه شكراً حاراً . فدارت الاوراق رائحة غادية تنساب بين الاصابع انسياب المـــاء الرقراق الصافي رشيقة انيقة ناعمة تزمع حظاً وتهبط بآخر والقوم بين صفرة وحمرة .. بين شهقة وأنه . بين ابتسامة وكآبة .. بين مد وجزر ، والدراهم بين ايديهـم كسبايا الحرب مقهورة مغلوبة لاتدري من مالكها ومن معطيها ، تقف هنا وتتمهل هناك ، تتقدم الى هنـا وتتراجع الى هناك ثم تعود وتعود الى مالا نهاية . ترى من احوج من هؤلاء الى اموالهم . لقد صرفوا سحابه نهارهم في اعمال متعبة مرهقة فاستحقوا هذه الاجور القليلة فاجتمعوا ليقامروا بها . لابد لكل منهم عائلة ولكل منهـم زوجات وابناء واخوة قد أصابتهم الحياة

بالكثير من متاعبها ومشاكلها يسعون الى الخبز والخبز ينأى عنهم ويجدون وراء المسكن ويأبى المسكن الا ان يفيض بأهله .

بين آونة واخرى يتقدم علوان فيستلم ضربيته وما يزال يستلم ويستلم حتى يكون هو الرابح الاول فيخرج الاربعة الى الطريق خاوين مفلسين .

هناك في المقهى وجوه كثيرة شاحبة معروفة تطل منها عيون حزينة باردة خابية قائمة فوق هياكل ناحلة ضاوية قد انعقدت فوق رؤوسهم سحب كثيفة من الدخان . يريدون ان يهربوا من حياتهم ولو استطاعوا لهربوا حتى من اجسادهم .

* * *

سأترك هذه المقهى بعد قليل وسأستقبل في الغد صديقي نوري الذي اعتاد ان يجلس في مقهى (البرازيل) ويدخن السيجار ويتعشى بالحلويات ويحتسي اكواب الشاي مع الحليب والكاكاو ، ويتحدث عن رباطه وحذائه ومكويه وبائع قمصانه واربطته بحماسة المخترع الذي يتحدث عن تجاربه واستكشافاته .

لقـد اشتبك أياماً في معركة مع نفسـه . هناك في حياته المضطربة الصاخبة امرأة جميلة شابة لها زوج فقير عاطل . يريد ان يحسن الى هذه المرأة ويتقرب اليها ويخطب ودها وينتشلها من البؤس الغارقة فيه ويجعل منها امرأة انيقة مهذبة . ولكنها لاتعجبه كما يبتغي فهي نحيفة العود شاحبة الوجنتين عليلة الجسد . وكل صفاتها انها بيضاء اللون فارعة الطول

عريضه الوسط . يستشيرني احياناً هل الأحسن ان اتركها وانصرف الى غيرها ام اتعهدها بالعناية والعلاج فاصطحبها الى طبيب واشتري لها أدوية منعشة واجهزها بأبر البنسلين كي تسمن قليـــلا وتحمر وجنتاها وتحلو ابتسامتها ويستدير وجهها انه يفكر فيها كما يفكر الرجل عندما يشتري بقرة . سأذهب اليه فى الغد واملى برؤيته كي ازيد من مرارة نفسي

صورة من الواقع

في القرية !..

على ربوة غير بعيدة عن الأنظار ارتفعت فوق أرض القبور المقبية بعضها سليم قائم بحجارته وترابه رغم الزمن الطويل وبعضها مفتت زائل قد ذهب ترابه وتبعثرت حجارته وأحنى هامته للارض فاستوى وإياها ، كثير منها يعلو بعلو الربوة وينحدر بانحدارها ويتجه صوب الشرق والغرب حتى لنكاد نحسب الأرض كأنها قبر واحد احتوى عدداً هائلا من الخلق .

كانت عجوزاً واحدة قد اقتعدت حجراً كبيراً تنتحب بصوت خافت ضعيف وتقول شيئاً حزيناً مؤسفاً بلغة غير عربية أن ابنها أو أخاها أو شيئاً من هذا . نال غصص الدنيا ومتاعبها ثم سكن هنا سكنته الأخيرة .

و كلما أعياها النحيب وأتعبها الرثاء هجمت على علبة سيكائرها النحاسية فاخذت سيكارة طويلة ذات عقب وأشعلتها في فمها .

البؤس شيء مألوف في كل مكان . كثير منه فيالشمال و كثير منه في الجنوب !

كانت أصوات مزعجة منبعثة من الحارات الضيقة المجاورة ، صوت طبل كبير يقرعه شاب بلدي يسير وراء لوحة السينما وامامه رجل مكتهل ينفخ بزمارة قد انتفخ خداه وزاغت عيناه وارتفع الدم الى وجهه ، يقطع هذا الموكب الازقة يدخل واحداً ويخرج من الآخر واللوحة تدور في الفضاء عليها رجل أسود شاهراً سيفه يقفز من فوق حصان ، والأولاد قد خرجوا مهللين مبتهجين بهذا المشهد المؤنس يسيرون امام اللوحة وورائها . وقارع الطبل يوالي ضرباته الشداد ولا يبتسم في وجه أحد .

هي السينما الوحيدة في القرية مقاعدها كمقاعد المقهى من الدرجة الثالثة ولا يعرض فيها فيلم تتناسب أهميته مع تلميذ في الصف الأول الابتدائي . اما النساء فقد أخرجن رؤوسهن من الأبواب الواطئة القديمة . حتى لكنت ترى احداهن شابة في غير جمال ترضع طفلا هزيلا قد جثم على صدرها جثوم القملة في الرأس يبدو من محياها انها انسانة تعيش خارج معسكر العالم قد قذفتها الدنيا هنا ثم ستنتشلها من هنا و تذهب بها الى الربوة الابدية .

يجب أن اذكر ان في أعلى الربوة قبراً كبيراً فخماً عليه نقوش وألوان

وأصباغ تظلله مظلة كبيرة تسندها الى الأرض اعواد من الحديد،انه قبر انسان غني لا يريد أن يذهب عن هذا العالم الا بشهادة تشهد على عناه فكان له ما كان وكان للآخرين ما كان !

ليس هذا كل شيء انما هناك صاحب المقهى رجل بطين ،أغبر الوجه ماكر النظرات أخذ طريقه تجاه الربوة ، يدفع بطنه امامه ويتدحرج على الطريق كالكرة .

ما الخبر ؟

انه لخبر سار ، ان هناك من تمشي امامه وتتجه هي الأخرى صوب الربوة ، امرأة هيفاء فارعة قد احتواها سواد جميل يعلو فوق رأسها وينساب بين قدميها .

في هذه القرية الوادعة الساكنة ذات البؤس العظيم امرأة غانية لامعة لها كل هذا الطول وكل هذا الحذاء المزوق الفاخر ليجذب ورائها جيشاً من الرجال . ولكن الرجل كان وحده يثبت خطواته على الأرض ويقفو أثر الحسناء .

الى أين ؟

الى جوف المقبرة بين الحجارة المهدمة وأكوام التراب . هناك الملتقى لم تكن مقهاه خالية من الزبائن بل هي محتشدة احتشاد النمل يقوم بالخدمة فيها رجال يعملون باخلاص وأمانة ويشهدون ربهم على اخلاصهم وأمانتهم، يجمعون للرجل البطين شيئاً كثيراً ينفقه على مسرته ولهوه .

وقبل ان تغيب الشمس ، كان كل شيء قد انتهى بســــلام ، عاد الرجل البطين الى مقهاه منتفخاً باسماً بعد ان نال كثيراً من المتعة بين القبور . ولا يدري انسان هل سمع العجوز بنحيبها وولولتها ام لم يسمع شيئاً ، انما الذي يدريه كل انسان ان في حياتنا مقداراً طيباً عزيزاً من الفوضى والفساد .

﴿ انتهى ﴾

الفهرست

صفحة

الثمن ٦٠ فلساً